الفطرة

حقيقتها ومذاهب الناس فيها

إعداد
علي بن عبد الله بن علي القرني

دار المسلم للنشر والتوزيع

الفطرة

حقيقتها ومذاهب الناس فيها

إعداد
علي بن عبد الله بن علي القرني

دار المسلم
للنشر والتوزيع

ح دار المسلم للنشر والتوزيع ،١٤٢٤هـ.

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القرني ، علي عبد الله علي

الفطرة ، حقيقتها و مذاهب الناس فيها ./ علي عبد الله علي القرني.-

الرياض ، ١٤٢٤هـ

٦٤٨ ص ؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك: ١-٩٨-٨٥٤-٩٩٦٠

١- العقيدة الإسلامية ٢- الإسلام والفطرة أ.العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٢٤/١٢٢١

رقم الإيداع : ١٤٢٤/١٢٢١

ردمك : ١-٩٨-٨٥٤-٩٩٦٠

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م

دار المسلم للنشر والتوزيع

دار المسلم للنشر والتوزيع

الرياض ١١٤٨٤ ص. ب.: ١٧٣٥٦ هاتف : ٤٩٣١١٤٩ فاكس : ٤٤٥٣١٧١

البريد الالكتروني :info@dar-almuslim.com عنوان الموقع www.dar-almuslim.com

أصل هذا الكتاب

رسالة ماجستير قدمت إلى قسم العقيدة

والمذاهب المعاصرة في كلية أصول الدين في

الرياض، وقد نوقشت عام ١٤٢١هـ ، وحصل

الباحث على تقدير « ممتاز »

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فقد خلق الله الخلق على الفطرة، وأمرهم بتعظيمها، ووصف الدين بها في سياق حثه وأمره باتباعه، فكانت الفطرة مأموراً باتباعها، وحذر العباد من تغييرها مبيّناً أن اتباعها هو سلوك للدين الذي ارتضاه، وجَعَله مستقيماً قيّماً لجميع ما يحتاجه البشر في أمر دينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

وجاءت السنة بذلك فبينت أنهم على دين الفطرة منذ ولادتهم، فقد قال النبي ـ ﷺ ـ: "**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء**" (٢).

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) سيأتي تخريجه في ص ٥٢.

وفي روايـــة قـــال أبو هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ راوي الحديث، في آخر الحديث:« اقرءوا إن شئتم: فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله».

ومـــع هـــذا الحث على لزوم الفطرة وسلوك سبيلها، فقد اختلف العلماء ـــ من أهل السنة وغيرهم قديماً وحديثاً ـــ في حقيقة هذه الفطرة، وبيان المراد بها إلى أقوال عدة ومذاهب مختلفة.

ولّما كان نظام الدراسات العليا يُلزم الطالب ـــ بعد السنة المنهجية ـــ أن يُعـــدّ بحـــثاً لنيل درجة الماجستير، استشرت جمعاً من أصحاب الفضيلة المشايخ والأساتذة الأفاضل في أن يكون موضوع بحثي في هذه المرحلة هو أقوال الناس ومذاهـــبهم حـــول هذه الحقيقة، واستقر الرأي على أن يكون عنوان البحث: «**الفطرة حقيقتها ومذاهب الناس فيها** » .

ومـــن الأســـباب التي تبين أهمية هذا الموضوع ـــ وجعلتني أختاره ـــ مايلي:

١ـــ أن القـــرآن الكـــريم والسنة المطهرة قررا الأخذ بالفطرة، وجعلاها مسلكاً صحيحاً يُعتمد عليه في تقرير أحكامنا وبناء معارفنا.

٢ـــ أن ممـــا امـــتاز به منهج أهل السنة والجماعة عن غيره من المناهج الاستدلال بالفطرة السليمة على كثير من مسائل الاعتقاد، وما ذلك إلا بفضل تمسكهم بالكتاب والسنة.

٣ ـــ أن مـــن السلف الصالح من أفرد هذا الموضوع بالبحث والتصنيف، ولكن تلك المصنفات لم تصل إلينا وعُدّت في نظر الكثير من الباحثين في عداد المفقود، مما يزيد هذا البحث الذي أتقدم به أهمية، ومن تلك المصنفات:

أ ــ مسألة في الفطرة للإمام الخطابي، وقد أشار إليها عند شرحه لحديث «**كل مولود يولد على الفطرة** » بقوله: « وقد ذكرت في تأويل هذا الحديث خمسة أوجه أُخر في مسألة أفردتها، أَشْبعتُ الكلام فيها » [١] .

ب ــ الرد على ابن قتيبة لمحمد بن نصر المروزي ، وهذا الرد كان في مسألة الفطرة وآية الإشهاد [٢].

ج ــ رسالة في تفسير آية الإشهاد، وهي عبارة عن قواعد في ثلاث كراريس وأكثر من سبعين ورقة. لشيخ الإسلام ابن تيمية [٣].

د ــ شرح حديث « كل مولود يولد على الفطرة » لتقي الدين السبكي، وهذه هي الرسالة الوحيدة من الرسائل السابقة التي وصلت إلينا [٤].

٤ ــ أن من أسباب ضلال المتكلمين وغيرهم من الفرق، إنكارهم لدليل الفطرة أو انحرافهم فيه، وقد أوقعهم هذا الإنكار في تناقضات وضلالات ستظهر من خلال الرد عليهم في هذا البحث.

٥ ــ أنه مع شهرة الخلاف في حقيقة الفطرة والمراد بها، وصحة الاستدلال بها، لم توجد رسالة علمية أفردت هذا الموضوع ببحث مستقل

---

(١) انظر: أعلام الحديث: ٤/٢٣٢٤-٢٣٢٥، ومعالم السنن: ٤/٣٢٥، ومنهج الخطابي للحماد: ١/ ١٢٣-١٢٥، والإمام الخطابي للعلوي: ٤٦.

(٢) انظر: أحكام أهل الذمة لابن القيم: ٢/٥٢٥، والإمام محمد بن نصر المروزي وجهوده في بيان العقيدة للنفيعي: ٢/٥٦٧.

(٣) انظر: أسماء مؤلفات شيخ الإسلام لابن رشيق، وأعيان العصر، والوافي بالوفيات كلاهما للصفدي، وفوات الوفيات للكُتبي،[نقلاً عن الجامع لسيرة شيخ الإسلام/ لعلي العمران: ٢٢٤، ٢٩١، ٣١٤، ٣٢٩].

(٤) حققها/ محمد السيد أبو عمّة، ونشرتها: دار الصحابة للتراث بطنطا، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

يجمع مسائله والأقوال فيه ويحققها بأدلتها وتفصيلاتها ـــ وذلك على حد علمي ـــ[1].

٦ ـــ التوجيه والتشجيع الذي وجدته من أصحاب الفضيلة المشايخ والأساتذة الكرام الذين شاورتهم في الكتابة في هذا الموضوع، وفي خطته.

لهذه الأسباب ولغيرها عقدت العزم ـــ مستعيناً بالله تعالى ـــ على الكتابة في هذا البحث.

خطة البحث:

تتضمن خطة البحث: مقدمة، وتمهيداً، وثلاثة أبواب، وخاتمة، وفهارس عامة، وتفصيل ذلك كالتالي:

---

(١) يستثنى من ذلك ما يلي:

أ ـــ الفطرة والعقيدة الإسلامية/ للجعبري، رسالة ما جستير مقدمة إلى جامعة أم القرى عام ١٣٩٩ هـ. وقد أعددت حولها دراسة قُدّمَت لمجلس قسم العقيدة، حين قُدّم مخطط هذا البحث.

ب ـــ مفهوم الفطرة بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي "نظرة تربوية"، بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير قدمه عبدالله البيشي لقسم التربية بجامعة أم القرى، عام ١٤١٦هـ وهو يختلف عن هذا البحث إذ يهتم بجانب التربية.

ج ـــ الفطرة ووظائفها في الإسلام، لمحمد سليمان فرج، بحث ما جستير قَدّمه الباحث لقسم الدعوة والثقافة بكلية أصول الدين بالأزهر عام ١٤٠٢هـ، وهو بحث ركّز على الجوانب الدعوية والثقافية في الدين الإسلامي.

د ـــ الفكر التربوي عند ابن الأمير الصنعاني من خلال مخطوطته "إيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة"، بحث ماجستير مُقدّم إلى كلية التربية بجامعة أم القرى عام ١٤٠٩هـ، وهو بحث في التربية كما هو ظاهر من عنوانه.

المقدمة:

وتتضـــمن الحديث عن أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وخطة البحث، والمنهج المتبع في صياغة البحث.

التمهيد:

وفيه أمران:

١ـــ تعريف الفطرة لغة واصطلاحاً.

٢ـــ العلاقة بين العقل والفطرة.

الباب الأول

الفطرة عند أهل السنة والجماعة

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الأدلة من الكتاب والسنة والعقل والحس على وجود الفطرة.

الفصل الثاني: أقوال أهل السنة في معنى الفطرة ومناقشتها وبيان الراجح منها.

وفيه تمهيد وخمسة مباحث:

التمهيد: سبب الاختلاف في معنى الفطرة عند أهل السنة.

المبحث الأول: القول بأن الفطرة هي الخلقة.

المبحث الثاني: القول بأن الفطرة هي البداءة.

المبحث الثالث: القول بأن الفطرة هي ما فطر الله عليه بني آدم من الإنكار والمعرفة والكفر والإيمان.

المبحث الرابع: القول بأن الفطرة هي الميثاق.

المبحث الخامس: القول بأن الفطرة هي الإسلام، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تقرير حقيقة الفطرة من خلال النصوص الشرعية.

المطلب الثاني: مناقشة الاعتراضات على هذه الحقيقة.

الفصل الثالث: منزلة الفطرة والاستدلال بها.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: منزلة الفطرة في الإسلام والأسباب التي تؤثر عليها.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: منـــزلة الفطرة وأسباب سلامتها.

المطلب الثاني: الأسباب التي تفسد الفطرة وتؤثر فيها.

المطلب الثالث: شواهد على أن ما خالف الإسلام يخالف الفطرة.

المبحث الثاني: دلالة الفطرة على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: دلالة الفطرة على معرفة الله تعالى.

المطلب الثاني: دلالة الفطرة على توحيد الألوهية.

المطلب الثالث: دلالة الفطرة على إثبات صفات الكمال لله تعالى.

الباب الثاني

المخالفون لأهل السنة في الفطرة والرد عليهم

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مذهب القدرية في الفطرة.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: موقف القدرية من نصوص الفطرة

المبحث الثاني: شبهات القدرية والرد عليها.

الفصل الثاني: مذهب المتكلمين في الفطرة.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: معرفة الله عند المتكلمين.

المبحث الثاني: أول واجب على المكلف عند المتكلمين.

المبحث الثالث: الرد على المتكلمين في مذهبهم في الفطرة.

الفصل الثالث: مذهب الفلاسفة وعلماء النفس في الفطرة.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مذهب الفلاسفة العقلانيين في الفطرة ولوازم هذا المذهب.

المبحث الثاني: مذهب الفلاسفة التجريبيين في الفطرة والرد عليهم.

المبحث الثالث: مذهب علماء النفس وأصحاب النظريات التربوية في الفطرة والرد عليهم.

الباب الثالث

الميثاق وصلته بالفطرة

وفيه فصلان:

الفصل الأول: تعريف الميثاق وصلته بالفطرة.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تعريف الميثاق لغة واصطلاحاً، وبيان أنواعه.

المبحث الثاني: الصلة بين الميثاق والفطرة.

الفصل الثاني: الميثاق في الكتاب والسنة وأقوال أهل العلم.

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أقوال المفسرين في آية الإشهاد، والتحقيق في ذلك.

المبحث الثاني: المرويات في استخراج ذرية آدم من صلبه والتحقيق في ثبوتها ومعناها.

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المرويات في استخراج ذرية آدم من صلبه والتحقيق في ثبوتها.

المطلب الثاني: أقوال أهل العلم في استخراج ذرية آدم من صلبه من خلال الآية والمرويات السابقة.

الخاتمة:

وقد ذكرت فيها خلاصة البحث وأهم نتائجه.

الفهارس :

أسقطت عند الطباعة عدة فهارس مراعاة لحجم الكتاب وإلا فهي مثبتة في أصل الرسالة، واكتفيت هنا بما يلي:

ـ فهرس الأحاديث والآثار.

ـ فهرس المصادر والمراجع.

ـ فهرس الموضوعات.

المنهج المتبع في صياغة البحث [1]:

سرت في هذا البحث على منهج التحليل والنقد والتزمت في صياغته ما يلي:

١ ـ عزو الآيات إلى سورها وذكر أرقامها وكتابتها بالرسم العثماني.

٢ ـ إذا كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما بلفظه فإني أكتفي بتخريجه منهما، وإذا لم يكن بلفظه فيهما أو في أحدهما فإني أضيف مصدراً من المصادر التي ذكرته بلفظه. مع تقديم من أخرجه بلفظه.

٣ ـ إذا لم يكن الحديث في الصحيحين أو في أحدهما فإني أتوسع في تخريجه من السنن والمسانيد والمعاجم ـ قدر الاستطاعة ـ وكذا الآثار.

---

(١) استثنيت من هذا المنهج المقدمة فلم ألتزم فيها بالتخريج ـ إذا كان الحديث سيأتي فيما بعد ـ والتراجم ونحو ذلك. كما استثنيت حديث أبي هريرة في ص٥٢ وحديث عمر ص ٨٩ و٥٠٤ من بعض فقرات هذا المنهج لكونهما عمدة في بابيهما.

٤ ــ عزو الحديث أو الأثر كالتالي:

أ ــ إذا كان في صحيح البخاري فإني اجتهد في ذكر جميع المواطن التي خرّجه البخاري فيها مع ذكر الكتاب والباب والجزء والصفحة.

ب ــ إذا كان في صحيح مسلم فإني اذكر الكتاب والباب والجزء والصفحة ورقم الحديث أيضاً.

ج ــ ما سواهما اذكر الكتاب والباب والجزء والصفحة إن كان المرجع التزم ذكر كافة هذه المعلومات. ما عدا المسانيد والمعاجم فإني أكتفي برقم الحديث. وأرتب هذه المصادر حسب الوفاة.

د ــ أُخرّج الحديث في أول موضع يرد فيه، ولا أحيل على هذا الموضع في بقية المواضع التي يرد فيها الحديث أو الأثر، اكتفاءً بفهرس الأحاديث والآثار حيث يمكن من خلاله تحديد أول موضع ذُكر فيه الحديث أو الأثر.

٥ ــ إذا نقلت كلاماً لأحد العلماء بنصه فإني أضعه بين علامتي تنصيص، وإذا تصرّفت فيه تصرّفاً يسيراً كزيادة كلمة ونحوها، فإني أضع الزيادة بين معكوفتين هكذا [ ].

أما إذا نقلت الكلام بمعناه أو بتصرف كثير فإني أُصدّر الإحالة بكلمة: انظر، ولا أضع علامة تنصيص.

٦ ــ إذا أطلقت لفظة "شيخ الإسلام" فالمراد به أحمد بن عبدالحليم بن تيمية ــ رحمه الله ــ. وإذا أطلقت "الدرء" فالمراد به كتابه [درء تعارض العقل والنقل].

٧ ــ وضعت فهارس عامة للبحث ــ كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الخطة ــ .

٨ ــ أعتمد في المصادر والمراجع على طبعة واحدة ، وإن اختلفت الطبعات في بعض المراجع لسبب اقتضى ذلك، أبين ذلك في الحاشية عند العزو إليها، وفي فهرس المراجع.

٩ــ في فهرس المراجع والمصادر التزمت الترتيب الهجائي، وذكر بيانات كل مرجع على النحو التالي: اسم الكتاب، المؤلف، المحقق، دار النشر، مكانها، الطبعة، تاريخها، وكل هذا في المراجع التي التزمت هذه المعلومات كاملة، وما أسقَطَتْهُ بعض المراجع، فإني أُسقِطُه تبعاً لذلك.

وبعد.... فقد استفرغت وسعي في الوصول بهذا البحث إلى أقرب منزلة من الكمال، وبذلت جهدي في إخراجه بأسلوب علمي جادّ مُنظّم، فأردته مختصراً شاملاً، سهل المأخذ سريع الفهم، قوي الدلالة صحيح العلم.

وما تَكلّف نفس فوق طاقتها ولا تجود يدٌ إلا بما تجد [1]

وقد أبى الله تعالى الكمال إلا لكتابه، وسنة نبيه محمد ﷺ، والإنسان ضعيف بطبعه، لا يسلم من الخطأ والزلل، فكيف وقد جمعت إلى ضعف البشر، قصر النظر، وقلة العلم، وكثرة العيوب.

ولا أدعي من كل عيب خُلوّه فإن كمال العبد يستصحب النقصا

فلا يستغرب كثرة وقوع الخطأ مني فيما كتبت، لما سبق وأن بيّنت، والمرغوب ممن يقف على هذا البحث، أن يعذر صاحبه، فإن بضاعته مزجاة ، حقيق بحاملها أن يقال فيه، "تسمع بالمُعيدي خير من أن تراه" وهاهو قد نَصَبَ نفسه لسهام الراشقين، فلقارئه غنمه وعلى مؤلفه غرمه، وهذه بضاعته تُفرَضُ

---

(١) ورد عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن قائله هو جعفر بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٣/٤٣٠.

عليك ، ومَوليّته تُهدى إليك، فإن صادفت كفؤاً كريماً لها لن تعدم منه إمساكاً بمعروف أو تسريحاً بإحسان، وإن صادفت غيره فالله تعالى المستعان وعليه التكلان.

وقد رضي من مَهرها بدعوة خالصة إن وافقت قبولاً واستحساناً، وبرَدّ جميل إن كان حظها احتقاراً واستهجاناً، والمُنصفُ يهبُ خطأ المخطئ لإصابته، وسيئاته لحسناته، فهذه سُنّة الله في عباده جَزاءً وثواباً، ومن ذا الذي يكون قوله كله سديدا، وعمله كله رشيدا، وهل ذلك إلا المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، ونطقه وحي يوحى، فما صح عنه فهو نقل مُصدّق عن قائل معصوم، وما جاء عن غيره فثبوت الأمرين فيه معدوم، فإن صح النقل لم يكن القائل معصوما، وإن لم يصح لم يكن وصوله إليه معلوما [1].

وختاماً... فالحمد لله تعالى وهو للحمد أهل، أن وفقني وأعانني، على إنجاز هذا البحث، الذي أتقرب به إليه رجاء مثوبته وابتغاء مرضاته، فما كان فيه من صواب فبفضل الله وتوفيقه، وما كان فيه من خطأ وزلل فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منه بريئان.

وأسأل الله تعالى العفو والستر، والإعانة والتسديد، وأن يلهمني الشكر والحمد على نعمه الكثيرة والآئه الجسيمة، والتي من أعظمها بَعدَ نعمة الإيمان والإسلام، ما وهبني إياه تعالى من والدين برّين رحيمين، رعياني صغيرا وربياني كبيرا، وسندا ذلك كله بالدعاء منهما، مما كان له أبلغ الأثر فيما وُفقّتُ له في الحياة العلمية والعملية وتيسير سائر الأمور الدينية والدنيوية، مما لا أملك أمامه إلا سؤاله تعالى بأن يرحمهما كما ربياني صغيرا، وأن يجزيهما عني خير ما جزى

---

(١) انظر: روضة المحبين لابن القيم: ١٤-١٥.

بـــه والداً عن ولده، وأن يُعينني على برهما والإحسان إليهما على الوجه الذي يرضيه تعالى عني، ثم يرضيهما.

وامتـــثالاً لقوله ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ : « **من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى ترو أنكم قد كافئتموه**»[(١)].

ولا شـــك أن المكافأة في حقهما معدومة، فلا أَملكُ إلا أن أجعل الدعوة لهمـــا تلـــو الدعوة موصولة، بأن يُعظِم الله لهما الأجر والمثوبة، ويبارك لهما في أعمارهما وأعمالهما إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وانطلاقاً من قوله ـــ ﷺ ـــ : « **لا يشكر الله من لا يشكر الناس** » [(٢)] أجده لزاماً علي أن اعترف لأهل الفضل بفضلهم وهم كثرٌ ـــ ولله الحمد ـــ وفي مُقدَّمهم فضيلة الدكتور/ سليمان بن صالح الغصن الذي أشرف على هذه الرسالة من البدء إلى الختام ، فحرص أن لا يفوته من هذا البحث جملة، وأن لا تَـــنُدّ عـــنه عبارة. فجزاه الله تعالى خير الجزاء على ما أتحفني به من التوجيهات النـــيّرة والآراء السديدة، وعلى ما عاملني به طوال هذه المدة من رحابة الصدر،

---

(١) أخـــرجه أحمد في مسنده برقم ٥٣٦٥، ٥٧٠٣، ٥٧٤٣، ١٦٠٦، والبخاري في الأدب المفرد، باب من صُنع إليه معروف فليكافئه: ٨٤، وأبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بـــالله ١٢٨/٢، والنسائي في سننه (المجتبى)، كتاب الزكاة، باب من سأل بالله عز وجل ٨٢/٥، وابـــن حـــبان في صحيحه، كتاب الزكاة، ذكر الأمر بالمكافأة لمن صُنع إليه معروف ١٩٩/٨، والحاكم في المستدرك، كتاب البيوع ٧٣/٢، والبيهقي في سننه كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله تعالى ١٩٩/٤. قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده في ثلاثة عشر موضعاً أولها برقم ٧٥٠٤، والبخاري في الأدب المفرد باب مـــن لم يشـــكر الناس: ٨٥، وأبوداود في سننه، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف ٢٥٥/٤، والـــترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك ٣٣٨/٤، وابن حـــبان في صحيحه كتاب الزكاة، ذكر ما يجب على المرء من الشكر لأخيه المسلم عند الإحسان إليه ١٩٨/٨. وقال الألباني صحيح على شرط مسلم [السلسلة الصحيحة ٤١٦].

وطلاقة الوجه، وحسن الخلق، فقد كان ـ سدده الله ورعاه ـ دائم السؤال والاتصال، سعياً منه في تسديد القوس وتقويم الساعد، مما كان له أبلغ الأثر في إخراج هذا البحث وإبرازه بهذه الصورة.

فجزاه الله خير الجزاء وأجزل له المثوبة والعطاء.

كما أشكر جزيل الشكر جميع من قدّم لي أيّة مساعدة لإنجاز هذا البحث ـ من ملاحظة أو إعارة كتاب أو مراجعة طباعة أو غير ذلك ـ سائلاً المولى تعالى أن يجزيهم خير الجزاء على كل ما قدموه وبذلوه، وأن يعينني على ردّ ولو بعض ذلك المعروف.

كما أقدم عظيم الشكر وجزيل الامتنان للشيخين الكريمين والأستاذين الفاضلين:

فضيلة الشيخ الدكتور/ حمد بن عبدالمحسن بن أحمد التويجري.

وفضيلة الشيخ الدكتور/ عبدالراضي بن محمد بن عبدالمحسن.

على تفضلهما بقراءة هذا البحث والموافقة على مناقشته، وتسديده وتقويمه.

سائلاً المولى تعالى أن يكتب لهما جزيل الأجر والثواب على ما بذلوه في ذلك من الوقت والجهد.

ولا أنسى ـ في نهاية هذه المقدمة ـ هذه الجامعة العريقة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ ممثلة في كلية أصول الدين، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة ـ أدامها الله حصناً منيعاً، وطوداً منيفاً، ووفق الساهرين على مسيرتها ـ علماء وعاملين ـ لتبقى معلمة شامخة، وركناً متيناً شديداً، خدمة للكتاب

العزيز والسنة المطهرة ونشراً للعلم الشرعي والعقيدة الصحيحة.

فلهم جميعاً جزيل الشكر وجميل العرفان على كل ما قدموه لي ولإخواني طلاب العلم من خدمات جليلة، تسهيلاً للطلب وترغيباً في التحصيل.

والحمـــد لله تعالى أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الأمين، سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

علي بن عبد الله القرني
المحاضر بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
كلية أصول الدين بالرياض
للمراسلة وإبداء الملاحظات
ص.ب: ١٧٩٩٩ الرياض: ١١٤٩٤

التمهيد

وفيه أمران:

الأول: تعريف الفطرة في اللغة والاصطلاح

الثاني: العلاقة بين العقل والفطرة

أولاً: تعريف الفطرة في اللغة والاصطلاح

أ ـ التعريف اللغوي:

بالنظر في معاجم اللغة العربية [١] وكتب غريب القرآن والحديث [٢] نجد أن أصل كلمة "فطرة" هو "فطر" فالفاء والطاء والراء أصل صحيح.

"والفطرة" على وزن فعلة وهي الحالة من "فطر" كالجلسة والركبة.

ومعنى هذه الكلمة في اللغة يدور على عدة معان منها:

* **فطر** ـ بالفتح ـ أي الشق: وهو الأصل في المعنى، وقيّده بعضهم بأنه الشق الأول، أو الشق طولاً، وجمعه "فطور" أي شقوق.

وشواهد هذا المعنى في القرآن الكريم كثيرة منها:

---

(١) انظر: مادة (فطر) في كتاب العين ٧/٤١٧-٤١٨ للخليل بن أحمد الفراهيدي، وجمهرة اللغة ٢/ ٣٧٠-٣٧١ لابن دريد، وتهذيب اللغة لمحمد بن أحمد الأزهري ١٣/٣٢٥-٣٣٠، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤/٥١٠ ، والقاموس المحيط للفيروز آبادي ٥٨٧، والصحاح للجوهري ٢/٧٨١، ولسان العرب لابن منظور ٥/٥٥-٥٩، والمغرب لابن المطرز ٢/١٤٣-١٤٤، وتاج العروس للزبيدي ١٣/٣٢٥-٣٣٢، والمصباح المنير لابن المقري، ٢/٤٧٦-٤٧٧، وغيرها من المعاجم اللغوية.

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن للأصبهاني ٥٧٥، وعمدة الحفاظ للسمين الحلبي ٣/٢٨٤، والفائق في غريب الحديث للزمخشري ٣/١٢٦-١٢٨، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٣/ ٤٥٧، ومجمع بحار الأنوار لمحمد الصديقي الكجراتي ٤/ ١٥٤-١٥٦، وغريب الحديث لابن الجوزي ٢/١٩٩-٢٠٠، وغريب الحديث لأبي عبيد ٣/٢٩٩-٣٠٠.

قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ (٤).

ومن شواهده في الحديث الشريف:

مـــا ورد في الحديث الصحيح أن النبي ـــ ﷺ ـــ : « **كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه** » (٥) أي تتشقق.

ومن شواهد الفطر بمعنى الشق في كلام العرب:

قول ثعلب :

شققت القلـــب ثم ذررت فيـــه هواكِ فليـــم فالتـــأم الفطـــار

وقولهم: سيف فُطار أي فيه صدوع وشقوق.

قال عنترة:

وسيفي كالعقيقة وهو كمعـــي سلاحـــي لا أفـــل ولا فطـــار

---

(١) الشورى: ٥.

(٢) الملك: ٣.

(٣) المزمل: ١٨.

(٤) الانفطار: ١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب قيام النبي ـــ ﷺ ـــ حتى تتورم قدماه، ٢/٤٤، وفي كـــتاب التفســـير باب قوله ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك ٦/٤٥، وفي كتاب الرقاق باب الصـــبر على محارم الله ٧/١٨٣، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفات المنافقين، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة ٤/٢١٧١-٢١٧٢ حديث رقم ٢٨١٩-٢٨٢٠.

ومنه قولهم: فطرَنابُ البعير إذا شق اللحم وطلع.

وقولهم: فطرتُ أصبعه أي ضربتها فانفطرت دماً.

قال خلف:

وأرنبة لك محمرة نكاد نفطرها باليد

وتسمي العرب أيضاً النبات إذا شق الأرض وظهر "فطراً" ومثله العنب إذا بدت رؤوسه إلى غير ذلك من الشواهد.

۞ ويأتي **"الفطر"** بمعنى الابتداء والاختراع والخلق والايجاد والإنشاء.

ومن شواهد هذا المعنى في القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (٤).

أمّا الشواهد من السنة المطهرة فمنها:

---

(١) الأنعام: ١٤.

(٢) هود: ٥١.

(٣) الإسراء: ٥١.

(٤) فاطر: ١.

قولـــه ـــ عليـــه الصـــلاة والسلام ـــ : « **وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض** » [١].

وكذلـــك الأثر المروي عن عبدالله بن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ حين قال: (ما كنت أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي ابتدأت حفرها) [٢].

وحديث علي بن أبي طالب ـــ رضي الله عنه ـــ : (وجبار القلوب على فطراتها)[٣] أي على خلقها [٤].

أما في كلام العرب فمن ذلك:

قول ثعلب:

هون عليك فقد نال الغنى رجـــل في فطرة الكلب لا بالدين والحسب

أي في خلقة الكلب.

۞ **وفي قولـــه تعالى:**﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾[٥]، إشارة إلى معنى آخر من

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل ١/٥٣٤. الحديث رقم ٧٧١.

(٢) أخرجه ابن جرير بسنده في التفسير ٥/١٥٨، وعزاه السيوطي في تفسيره إلى أبي عبيد في فضائله، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان. انظر: الدر المنثور ٧/٣.

(٣) رواه أبوبكـــر بـــن أبي شيبة في مصنفه ٦/٦٦ رقم ٢٩٥١١، والطبراني في الأوسط ٩/٤٣ رقم ٩٠٨٩، وأبو نعيم الأصبهاني في تسمية ما انتهى إلينا ص ٥٤، وفي سند هذا الأثر سلامة الكندي وقـــد تكلم أهل العلم في روايته عن علي ـــ رضي الله عنه ـــ وقالوا عنه لا يعرف وحكموا على هذا الأثر بالإرسال. انظر: مجمع الزوائد ١٠/١٦٣، وجامع التحصيل للعلائي ١٩٣، وتفسير ابن كثير ٦/٤٥٢-٤٥٣، وفتح الباري ١١/١٦٣.

(٤) لسان العرب: ٥/٥٨.

(٥) المزمل: ١٨.

معان الفطر وهو القبول فقوله: « منفطر به » إشارة إلى قبولها ما اقتضاه خلقه وإبداعه لها [١].

۞ **وأطلق العرب "الفطر"** أيضاً على الشيء الحديث الذي لم يمر على حدوثه زمن حتى يتأثر أو يتغير بل هو باقٍ على أصله.

ومنه قولهم « الفُطر » ــ بالوجهين ــ : شيء قليل من اللبن يحلب ساعتئذ.

أو اللبن ساعة يحلب.

وقولهم حيس فطير: أي طري قريبٌ حديث العمل، وفطر العجين اختبزه من ساعته و لم يخمره.

وشّر الرأي الفطير، أو إيّاك والرأي الفطير، وهو الذي لم يترو فيه صاحبه و لم يحكمه فبقي على حاله من البساطة.

وتقول العرب: "الفطاري" للرجل الفدم الذي لا خير فيه (وقيل عنده) ولا شر. وسيف فطار: فقيل عُمل حديثاً و لم يعتق.

وللفطرة إطلاقات أخرى ــ تعتبر إلى الاصطلاح أقرب منها إلى اللغة ــ أشار إليها أصحاب كتب غريب الحديث ومنها:

– **الإسلام**: وشواهد هذا الإطلاق كثيرة في السنة ومنها:

حديث: « **فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة** » [٢].

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن للأصبهاني: ٥٧٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظه، في كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء ٩٧/١، وبنحوه في كتاب الدعوات باب إذا بات طاهراً، وباب ما يقول إذا نام، وباب النوم على الشق الأيمن ٢٣٢٦/٥-٢٣٢٧، وفي كتاب التوحيد باب قوله الله تعالى: "أنزله بعلمه والملائكة يشهدون" ٢٧٢٢/٦. ومسلم في صحيحه بنحوه، في كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٢٠٨١/٤، حديث رقم ٢٧١٠.

وحديث: « أن النبي ـ ﷺ ـ سمع رجلاً يقول الله أكبر الله أكبر فقال رسول الله ـ ﷺ ـ على الفطرة » [١] أي على دين الإسلام، وغيرها من الأحاديث.

- **السنة**: ومن شواهده حديث: « **خمسٌ من الفطرة** » [٢] أي السنة أو سنن الأنبياء السابقين.

- **اللبن**: ودليله حديث المعراج المشهور وفيه أن النبي ـ ﷺ ـ أُتي بثلاثة أقداح: لبن وعسل وخمر فاختار اللبن فقال له جبريل: « أصبت الفطرة أنت وأمتك » [٣]، وقد فسّر أهل العلم الفطرة هنا بالإسلام والاستقامة "ومعناه ـ والله أعلم ـ اخترت علامة الإسلام والاستقامة وجعل اللبن علامة لكونه سهلاً طيباً طاهراً سائغاً للشاربين سليم العاقبة" [٤] .

ومادة "فطر" كثيراً ما ترد في القرآن الكريم، إلا أن كلمة "فطرة" على وزن فعلة لم ترد في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في سورة الروم في قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [٥].

---

(١) أخرجه مسلم بلفظه في صحيحه، كتاب الصلاة باب الإمساك عن الإغارة على قوم في دار الكفر إذا سمع فيهم الأذان ٢٨٨/١ حديث رقم ٣٨٢، وأخرج البخاري في صحيحه أصل هذا الحديث، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي- ﷺ- إلى الإسلام والنبوة، ١٠٧٤/٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب قص الشارب ٢٢٠٩/٥. ومسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة ٢٢١/١، حديث رقم ٢٥٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: "وهل أتاك حديث موسى، وكلم الله موسى تكليما" ١٢٤٣/٣، وباب واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها ١٢٦٧/٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله -ﷺ- إلى السماوات وفرض الصلوات ١٤٥/١، حديث رقم ١٦٨.

(٤) شرح صحيح مسلم/ للنووي: ٢١٢/٢.

(٥) الروم: ٣٠.

ويشير صاحب كتاب الفطرة [١] إلى أن أحداً لم يستعمل هذه الكلمة قبل ورودها في القرآن، واستدل بحادثة ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ مع الأعرابيان وفيه: "أنا فطرتها"، وذلك أن ابن عباس وهو حبر الأمة وهو العربي القرشي لم يعرف معنى هذه الكلمة من قبل سماع الأعرابي، فدل ذلك على أن هذه الكلمة لم يسبق لها أن استعملت قبل القرآن الكريم.

وخلاصة ما سبق أن الفطرة في اللغة لها معان وإطلاقات متعددة وهي: الشق، والخلقة، والابتداء، والاختراع، والايجاد من العدم، والقبول، والشيء الحديث العهد "الطري".

وهذا التعدد في المعنى اللغوي مع ما فيه من التداخل والترادف، أثّر على المعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة [٢].

ب ـ التعريف الاصطلاحي:

سأعرض لهذا المعنى بالتفصيل في فصول قادمة [٣] ـ إن شاء الله تعالى ـ إلا أنني هنا أشير إلى ما وصلت إليه في تلك الفصول القادمة وهو أن المراد بالفطرة في الاصطلاح هو الإسلام [٤].

---

(١) الفطرة للمطهري: ٥، ويمكن الاعتراض على هذا الرأي ببيت عنترة السابق لتقدم موته بخلاف ثعلب وخلف.

(٢) هذا التأثير المراد به تفسير بعض أهل العلم الفطرة شرعاً بمعناها اللغوي، انظر: ص٦٨ وص٧٨ و ٩٧ من هذه الرسالة.

(٣) هذا هو موضوع الرسالة بأكملها.

(٤) انظر المراد بهذا الإسلام ص ١٥١-١٥٥ من هذه الرسالة.

ثانياً: العلاقة بين العقل والفطرة

قبل الحديث عن هذه العلاقة لا بد من بيان المراد "بالعقل" من حيث المعنى اللغوي والاصطلاحي فأقول:

العقل لغة: مصدر عقل يعقل عقلاً فهو معقول وعاقل.

وأصل العقل المنع والحبس والتقييد [١].

وفي معجم مقاييس اللغة: "العين والقاف واللام أصل واحد منقاس، يدل على حبسة الشيء، أو ما يقارب الحبسة" [٢].

ومنه عقال البعير الذي يمنعه من الانفلات، والمعقل: الذي يلجأ إليه الناس فيمنعهم من عدوهم ونحوه [٣].

وفي تهذيب اللغة: "سمي عقل الإنسان الذي فارق به الحيوان عقلاً لأنه يعقله، أي: يمنعه من التورط في الهلكة، كما يعقل العقال البعير عن ركوب رأسه" [٤].

---

(١) انظر: لسان العرب مادة عقل ٤٥٨/١١.

(٢) معجم مقاييس اللغة مادة عقل: ٦٩/٤.

(٣) انظر: لسان العرب مادة عقل ٤٥٨/١١-٤٦٧.

(٤) تهذيب اللغة مادة عقل ٢٣٨/١-٢٤٠، وانظر: لسان العرب مادة عقل ٤٥٨/١١-٤٦٧.

أمـــا في الاصطلاح فمن الصعب أن يوضع له حد يعبر عن كنهه لأنه أمرٌ غيبـــي كالروح لا يعلمه إلا الله تعالى،وقد امتاز السلف ـــ رحمهم الله تعالى ـــ بالـــتزامهم بمـــا ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ـــ ﷺ ـــ من بيان منزلة العقـــل، وصـــفة العقلاء وما ينبغي لهم من التفكر والأخلاق ونحو ذلك، ولم يدخلـــوا في بـــيان ماهـــية العقل وحقيقته إلا بعد أن ابتليت الأمة الإسلامية بالمتفلسفة وأهل الكلام، الذين قالوا في العقل بأنه جوهر وأنه كذا وكذا، ورتبوا على ذلك ما يؤدي إلى فساد الاعتقاد، فبيّن السلف للناس بطلان كلام هؤلاء، وما هو الصواب في معنى العقل.

والناظر في أقوال من جعل له حداً من السابقين يجد كلاً منهم يُعرّفه ببعض أوصافه أو معانيه ولهذا اختلفت الأقوال في تعريفه ابتداءً بفلاسفة اليونان ومروراً بمن يسمون فلاسفة الإسلام وانتهاءً بالفلسفة الحديثة [١].

ومع هذا الاختلاف يمكن أن أقول إن أفضل التعاريف له أن يقال:

العقـــل يقـــع بالاســـتعمال عـــلى أربعة معان: الغريزة المدركة، والعلوم الضرورية، والعلوم النظرية، والعمل بمقتضى العلم [٢].

وقد اتفق أغلب من تكلم عن العقل على تقسيمه إلى قسمين [٣]:

---

(١) انظر: بغية المرتاد لابن تيمية ٢٥٥-٢٧٤، ومصادر المعرفة للزنيدي ٣٠١-٣١١، ومنهج السلف والمتكلمين لجابر بن إدريس ١/٧٠-٨٣.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٩/٢٨٦-٢٨٧ و٣٠٥، وبغية المرتاد لابن تيمية٢٦٠، ومنهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد لعثمان حسن ١/١٥٨.

(٣) انظر: مصادر المعرفة للزنيدي: ٣٠٣.

١ــ عقــل بالملكــة: وهــو العلم بالضروريات واستعداد النفس بذلك لاكتساب النظريات، وهو ما يسمى غريزة أو نوراً أو علوماً أولية.

٢ ــ وعقل مكتسب: وهو العقل المستفاد حينما تكون النظريات مختزنة عــند العقل بالملكة حاضرة لا تغيب عنه، وهو ما يطلق عليه عند العرب لفظة "العقل".

وفي مفردات القرآن: (العقل يقال: للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل) [١].

ومن الأمثلة على هذا التقسيم من القرآن الكريم ما يلي:

مثال المعنى الأول قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [٢].

والمعنى الثاني قوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [٣].

ووضع صاحب المفردات [٤] لكل معنى من هذه المعاني ضابطاً:

فجعل ضابط المعنى الأول: (كل موضع وقع فيه التكليف عن العبد بعدم العقل).

وجعل ضابط المعنى الثاني: (كل موضع ذم الله الكفار فيه بعدم العقل).

وبعــد هذا البيان الموجز للمراد: (بالعقل) في اللغة والاصطلاح والقرآن يأتي بيان العلاقة بينه وبين الفطرة وذلك من وجهين:

---

(١) المفردات للأصبهاني: ٥١١.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

(٣) البقرة: ١٧١.

(٤) المفردات للأصبهاني: ٥١١.

الأول: علاقة الفطرة بالعقل الغريزي:

١ــ أن مبادئ هذا العقل فطرية ويمكن أن يقال عنها بعبارة أخرى بدهية أو قبلية أو ضرورية.

ومعنى قولنا فطرية: (أن الله ــ سبحانه ــ خلقها في النفس البشرية قبل مباشرتها أي معرفة خارجية، ومع كونها تتضح بعد ذلك، ويكون هذا الوضوح سائقاً للنفس نحو مقتضياتها، إلا أنها قد تتأثر بعوامل خارجية، فتغفل النفس عن شيء منها، أو يخفت وضوحها وهي مع ذلك مضمرة في النفس، تعود لوضوحها كلما إنجلى غشاؤها بالتذكير أو بزوال العامل الحاجب ونحوه)[١].

ومع هذا (فلا يلزم من القول بفطريتها أن تكون متحققة بالفعل، بل يمكن أن تكون فطريّة مع أن وجودها إنما هو بالقوة لا بالفعل، بمعنى أن الإنسان مفطور على التسليم بها بمجرد تصورها بحيث لا يحتاج في ذلك إلى برهان، فهي فطرّية لا بمعنى أنها كامنة في النفس، وإنما بمعنى أن الغريزة العقلية تقتضيها بالضرورة، وعلى هذا فليست فطريتها هي مجرد إمكانها، بل هي وجوب تحققها مع سلامة الحواس والغريزة العقلية)[٢].

أما قولنا بدهية فيعني أنها (لا تحتاج بعد توجه العقل إلى شيء أصلاً)[٣] .

ومعنى قبليتها (تقدمها المطلق على التجربة)[٤].

---

(١) مصادر المعرفة للزنيدي: ٣٣٠.

(٢) المعرفة في الإسلام للقرني: ٣١٠-٣١١.

(٣) تعريفات الجرجاني: ٦٣.

(٤) مصادر المعرفة للزنيدي: ٣٣١.

والمراد بكونها ضروريّة أنه لا يمكن دفع ما سلّمت به عن النفس، لأن العلم الضروري (هو الذي يلزم نفس العبد لزوماً لا يمكن معه دفعه عن نفسه) [١].

وقد فسر المعلمي ـ رحمه الله ـ الفطرة بهذا المعنى في حديثه عن مآخذ العقائد الإسلامية فقال: (أما الفطرة فأريد بها ما يعم الهداية الفطرية، والشعور الفطري، والقضايا التي يسميها أهل النظر ضروريات وبدهيات، والنظر العقلي العادي، وأعني به ما يتيسر للأميين ونحوهم ممن لم يعرف علم الكلام ولا الفلسفة) [٢].

وهذا يكون إذا أريدت الفطرة بمعناها العام، أما إذا أريد جانب خاص من جوانبها وهو فطرية التدين، فإن الفطرة بهذا المعنى تكون جزءاً من المبادئ والأفكار الأولية، بل هي أوضح أجزائها لأنها (من العلوم الضرورية اللازمة التي لم يخل منها بشر قط، بخلاف كثير من العلوم التي قد تكون ضرورية ولكن قد يغفل عنها كثير من بني آدم، من علوم العدد والحساب وغير ذلك، فإنها إذا تُصوِرَت كانت علوماً ضرورية، لكن كثير من الناس غافل عنها) [٣].

٢ ـ أن مبادئ هذا العقل تتسم أيضاً بالعمومية:

ومعنى هذا (شمول هذه المبادئ القبلية ومقتضياتها لكل العقول بحيث تكون الحقيقة واحدة عند جميع الناس العاقلين على السواء، ولا تتوقف على مزاج أحد، ولا تنسحب على فردٍ دون فرد) [٤].

---

(١) الدرء: ١٠٦/٦.

(٢) القائد إلى تصحيح العقائد للمعلمي: ٢٠٣.

(٣) الدرء: ٤٨٩/٨.

(٤) مصادر المعرفة للزنيدي: ٣٣٤.

لكن هل هذه العمومية لكل العقول بدرجة واحدة من الحضور والوضوح والبداهة أو أنهم يتفاوتون في ذلك؟

هـذا ما اختلف فيه الباحثون من المسلمين وغيرهم، والحق ـ إن شاء الله تعالى ـ ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ من أن المبادئ الفطرية قد تضمر فتكون باهتة وقد تكون واضحة بأسباب اضطرارية أو كسبية، ومن هنا: تكون البداهة شيئاً نسبياً تختلف من شخص لآخر، لأنه من المعلوم (أن الناس يتفاوتون في قوى الأذهان أعظم من تفاوتهم في قوى الأبدان)[1].

الثاني: علاقة الفطرة بالعقل المكتسب:

بعد بيان علاقة الفطرة بالعقل الذي يطلق على الأوليات والبدهيات التي يحصل بها للإنسان اليقين بالمقدمات الصادقة الضرورية، لا عن قياس أصلاً ولا عن فكر، وبيان أن كلاً منهما جزء من الآخر أو يقوم عليه، يأتي الآن بيان العلاقة بين الفطرة والعقل المكتسب الذي يتكون من حقائق مكتسبة ومقولات كرّسها الاستعمال، وقيم مقبولة بالاشتراك ونحو ذلك من الاستنباطات والقياسات.

ويمكن تلخيص هذه العلاقة فيما يلي:

١ـ أن العمليات العقلية تقوم على الفطرة وتعتمد عليها:

فالعلوم العقلية تعتمد على الأوليات الضرورية فلا يمكن إقامة أي حكم عقلي إلا بعد بنائه على تلك الأوليات العقلية، وهي الأمور الفطرية والمدركات الحسية الظاهرة والباطنة [2].

---

(١) الرد على المنطقيين لابن تيمية: ٨٩، وانظر: الاستقامة لابن تيمية: ١/٣٠.

(٢) انظر: الدرء: ٥/٦٢.

وقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في أكثر من موضع أن مقدمات الأقيسة العقلية تكون مقدمات فطرية، وبناءً على ذلك تفيد الأقيسة اليقين [١].

وبيّن ـ رحمه الله ـ أن الأمور الفطرية هي أصل الأقيسة العقلية إذ الأقيسة تتكون من المقدمات الفطرية فقال: (إن مبنى العقل على صحة الفطرة وسلامتها) [٢].

ومما يؤكد قوة هذه العلاقة بين الفطرة والعقل المكتسب قول أحد الفلاسفة: (إن من الصعب أن نضع حدّاً فاصلاً بين الأحكام الأولية التي يقول بها العقل بفطرته، والأحكام المكتسبة من التجربة) [٣] ، فالعقل إذاً ليس مستقلاً بل (إن الدوافع الفطرية والعضوية والنفسية تعتبر قوة ضاغطة على [عقل] الإنسان توجهه لإشباعها.. ولها دور في توجيه وتوظيف العمليات العقلية) [٤].

٢ ـ أن الفطرة تُقَدّم على العقل عند التعارض:

وممن أكد هذا شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ حيث بيّن أن الفطرة لا تُرد بما دلت عليه مقاييس العقل ولا تعارض بها لأنها يقينية ومقاييس العقل قد تكون ظنية ولأنها لو كانت يقينية لم تعارضها، لأن اليقينيات لا يمكن أن تتعارض لوجوب كونها حقاً واستحالة خطأ أحدهما [٥].

---

(١) انظر: منهاج السنة لابن تيمية ٢/١٥٠-١٥١ و٦٤٤، والرد على المنطقيين لابن تيمية: ص ١١٥-١١٦ و٢٠٦ و٣١٥-٣١٦.

(٢) الرد على المنطقيين لابن تيمية: ٣٢٣.

(٣) المدخل إلى الفلسفة لأزفولد كولبة: ٢٧٤، نقلاً عن: مصادر المعرفة للزنيدي: ٣٨٣.

(٤) الإنسان، للمطرودي: ٢٥٢.

(٥) انظر: بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ٢/٢٥٢-٢٥٤.

وتُقـدّم الفطـرة ـ أيضاً ـ لأن الحق في الأقيسة العقلية فطري مدرك بالفطرة [١].

ومن أسباب تقديمها ـ أيضاً ـ أن العقل لا يمكن أن يستقل بالخوض في بعض الميادين (فالمنهج العقلي الكلامي لم يستطع أن يقدم حلولاً جذرية لكثير من المسائل التي تَعرّض لها في الجانب الإلهي، إذ أن الأقيسة العقلية كقياس الغائب على الشاهد بجوامعه، ومسالك إثبات العلة فيه والقياس الأرسطي، قد قضي عليها بالفشل كطرق إلى المطالب الإلهية، وبذلك تقف المناهج التي أبدعها العقل الإنساني تعلن عن فشله في الوصول إلى اليقين في المطالب الإلهية) [٢].

٣ ـ أن الفطرة تفيد ما لا يفيده القياس [٣]:

لأن (ما وضعه أرسطو والمناطقة من بعده من أدلة منطقية كانت نتيجة استقراء لما في الفطرة البشرية، حيث صيغ في مواد كلامية بعد أن كانت الفطرة تحسه وتتعامل مع الأشياء على أساسه، لكن هذا الاستقراء جهد بشري ليس معصوماً ومن هنا كان ورود الخطأ فيه) [٤].

ومما يؤكد أنها تفيد ما لا يفيده القياس أنها تدرك كيفية تركيبه وارتباط مقدماته بعضها على بعض بغير تعليم، وإن كان لا يجري على طرق المناطقة فالناس بفطرهم يتكلمون الأنواع الثلاثة: التداخل والتلازم والتقسيم، كما يتكلمون بالحساب وغيره، وبذلك يرتبون النتائج على المقدمات الصادقة [٥].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ٩/٦٨-٦٩.

(٢) مصادر المعرفة للزنيدي: ٣٨٧-٣٨٨.

(٣) انظر: الرد على المنطقيين لابن تيمية: ٣٨١

(٤) مصادر المعرفة للزنيدي: ٤٠٠.

(٥) انظر: الرد على المنطقيين لابن تيمية: ٢٩٧.

٤ ــ أن الأدلة العقلية تجلي الفطرة وتوقظها:

تقرر ــ فيما سبق ــ أن الفطرة هي أصل الأقيسة العقلية وأنها تقُدّم عليها عند التعارض وأنها تفيد مالا تفيده تلك الأقيسة، إلا أن الفطرة تتأثر بمؤثرات عدة فتخبو وتضعف أمام تلك المؤثرات فجعل الله هناك أموراً توقظها وتجليها ــ وسيأتي بيانها [1] إن شاء الله تعالى ــ ومنها الأدلة العقلية التي سلكها القرآن الكريم في إيقاظه لفطر المخالفين للحق والمعرضين عنه.

وهذه الأدلة التي سلكها القرآن الكريم تميزت بأمور عدة جعلتها مؤثرة بخلاف أدلة المناطقة والمتكلمين، ومن هذه الأمور [2]:

أ ــ أنها أدلة تخاطب الفطرة مباشرة بعيداً عن الأقيسة ذات المقدمات الطويلة والمعاني التجريدية، فمثلاً استدل القرآن على الألوهية بأعيان مشخصة كخلق السماوات والأرض وما بينهما والعناية بهما وتدبيرهما.

ب ــ أنها تمتاز بقوة الإقناع حيث تلجئ الإنسان إلى فطرته، وإلى العالم المشاهد فلا يبقى أمامه إلا التسليم والإذعان أو الإنقطاع والانسحاب، كما حصل في قصة إبراهيم ــ عليه السلام ــ مع النمرود، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [3].

---

(١) سيأتي بيانها في الباب الأول/ الفصل الثالث/ مبحث الفطرة، وأسباب سلامتها ص ١٧٦.

(٢) انظر: مصادر المعرفة للزنيدي: ٤٠٠-٤٠٣.

(٣) البقرة: ٢٥٨.

ج ــ أنها سلكت طرقاً كثيرة مؤدية إلى الحق، تناسب تفاوت العقول البشرية بخلاف المنطق الأرسطي الذي حصر الأدلة المؤدية للعلم في القياس البرهاني.

د ــ أن غاية أدلة القرآن العقلية الإيمان والعمل، الإيمان الحق والعمل به في واقع الحياة، بخلاف غاية الفلاسفة وهي المعرفة المجردة.

وبهذه الميزات جعل القرآن الكريم الأدلة العقلية التي هي قائمة أصلاً على الفطرة سبباً في جلاء الفطرة ويقضتها عن ضعفها وخفائها.

الباب الأول

الفطرة عند أهل السنة والجماعة

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الأدلة من الكتاب والسنة والعقل والحس على وجود الفطرة

الفصل الثاني : أقوال أهل السنة في معنى الفطرة ومناقشتها وبيان الراجح منها

الفصل الثالث : منزلة الفطرة والاستدلال بها

الفصل الأول

الأدلة من الكتاب والسنة والعقل والحس على وجود الفطرة

لا أعني بهذه الأدلة إثبات الرأي الراجح دون غيره، وإنما أعني بها إثبات وجود الفطرة التي تلجئ الإنسان إلى الله وقت الشدة والتي يُمَيِّز بها الحق من الباطل ويُنبذ بها الشرك والإلحاد.

وهذه الأدلة كثيرة جداً وسأحاول هنا ترتيبها وذكر طرفٍ منها:

أولاً: الأدلة من القرآن الكريم على وجود الفطرة:

تنوعت الأدلة التي سلكها القرآن الكريم لإثبات وجود الفطرة ومن هذه الأدلة ما يلي:

١ ــ تصريح القرآن الكريم بوجود الفطرة وأمره بلزومها:

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

في هذه الآية الكريمة أمر الله ــ جلا وعلا ــ بإقامة الوجه للدين، واتباع أوامره واجتناب نواهيه، من غير حيف ولا ميل، وهذا الدين هو الفطرة.

---

(١) الروم: ٣٠.

ونُصبت « فطرة الله » وذلك تأكيداً للزومها، ثم ختم الآية الكريمة ببيان أن الفطرة لا تتبدل فقال: « لا تبديل لخلق الله » .

ومن البدهي أن الله لم يأمر بلزوم هذه الفطرة وينفي التبديل عنها إلا وهي موجودة في أعماق النفس البشرية.

٢ ــ الآيات التي تُصرّح بأن الله تعالى أخذ العهد والميثاق على بني آدم جميعاً أن لا يعبدوا إلا إياه ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [١].

وقد فسّر جمع من أهل العلم الفطرة بأنها هذا العهد والميثاق المذكور في الآية ــ كما سيأتي ــ [٢].

ومن الآيات ــ أيضاً ــ قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ ﴾ [٣]، قال مجاهد: «وميثاقه الذي واثقهم به، هو الذي واثق به بني آدم ، وهم في ظهر آدم ــ عليه السلام ــ، ونحن وإن لم نذكره فقد أخبرنا الله تعالى به [٤].

---

(١) الأعراف: ١٧٢-١٧٣.

(٢) انظر: الفصل الثاني من هذا الباب/ مبحث تفسير الفطرة بالميثاق، ص ١٢٥-١٣٠.

(٣) المائدة: ٧.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ٤/٤٨١، وتفسير ابن كثير ٣/٥٧.

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (١)، والمراد بالعهد هنا الميثاق المأخوذ عليهم حين أُخرجوا من ظهر آدم ـ عليه السلام ـ (٢).

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ (٣).

والمراد: « ما أوثقوه على أنفسهم وقبلوه من الإيمان بالله تعالى وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد » (٤).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٥).

وهو الميثاق الأول الذي كان وهم في ظهر آدم بأن الله لا إله لكم سواه(٦).

وهذا الميثاق المذكور في هذه الآيات ـ وغيرها من الآيات ـ يدل على أن الله ـ جل وعلا ـ جعل لكل إنسان فطرة تنزعه إلى الحق ولولا ذلك لما كان لأخذ العهد والميثاق فائدة.

٣ ـ الآيات التي جاءت تبيّن أن الرسول ـ ﷺ ـ مُذكِّر، والقرآن تذكرة، والدين ذكرى.

---

(١) يس: ٦٠.

(٢) انظر: فتح القدير: ٣٧٧/٤.

(٣) الرعد: ٢٠.

(٤) تفسير النسفي: ٢١٦/٢.

(٥) الحديد: ٨.

(٦) انظر: تفسير الطبري: ٦٧٢/١١.

فهذه كلمات تدل على أن للإنسان سابق معرفة بشيء معين، فتحيي هذه التذكرة تلك المعرفة المسبقة ليتذكرها الإنسان.

ونقصد بهذه المعرفة الفطرة التي فطر الله الخلق عليها « فإنّ أكثر الناس غافلون عما فطروا عليه من العلم، فيُذكّرون بالعلم الذي فطروا عليه، ..ولهذا توصف الرسل بأنهم يُذكّرون ويصف الله تعالى آياته بأنها تذكرة وتبصرة.. ويُؤمر الناس تارة بالتذكرة وتارة بالتبصرة، ثم يؤمر الناس أن يُقروا بما عَلموه ويشهدوا به فلا يعاندوه ولا يجحدوه وأكثر الكفار جحدوا ما علموه » [(١)].

ومن الآيات الشاهدة لما سبق:

قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ [(٣)].

وقوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴾ [(٤)].

وقوله سبحانه: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [(٥)].

فالرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ بعثوا ــ كما دلت هذه الآيات- للتذكير ، وليس لإنشاء المعرفة بالله تعالى في قلوب الناس بعد أن لم تكن ، والدليل على ذلك أنه ليس في الرسل – عليهم الصلاة والسلام- من كَلّف قومه أولاً بالمعرفة أو بالأدلة الموصلة إليها فقال انظروا واستدلوا حتى تعرفوه، إذ

---

(١) جامع الرسائل: ابن تيمية: ١٦/١.

(٢) الغاشية: ٢١-٢٢.

(٣) المدثر: ٤٩.

(٤) المدثر: ٥٤.

(٥) الذاريات: ٥٥.

كانت قلوبهم مفطورة على معرفته والإقرار به ولكن عرض لها ما غيّرها وبدّلها فأرسل الله تعالى الرسل وأنزل الكتب للتذكير بتلك الفطرة وماهو معلوم لها وتقويته، وإمداده ونفي المغيّر له، لكي يحصل الكمال، إذ الكمال يحصل بالفطرة المُكملَة بالشرعة المنزلة [١].

وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [٢].

وفي هذه الآية شاهدان الأول التذكرة والثاني النسيان، فقوله "ذكّروا" دليلٌ على أنهم كانوا يمتلكون سابق معرفة، وكذلك قوله "نسوا" دليل آخر على أنه كان لديهم معرفة سابقة وهي الفطرة.

ولأن رسالة الرسول ـ ﷺ ـ عامة لكافة البشر: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [٣]، فإن آيات الذكرى والتذكرة ـ السابقة ـ تدل على أن القرآن تذكرة لكافة البشر سواء كانوا مؤمنين أو من أهل الكتاب أو ملحدين. مما يكشف عن أن كل الناس في كل الأعصار الماضية والحالية والمستقبلية لهم معرفة فطرية بالأسس العامة للإسلام المتكررة في جميع الأديان السماوية، وإلا فلن تصدق كلمة التذكرة على القرآن الكريم، إذن فالتذكرة شاملة، مع أن طائفة خاصة هي المستفيدة منها: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٤] [٥].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٦/٣٣٨ و٣٤٨.

(٢) الأنعام: ٤٤.

(٣) سبأ: ٢٨.

(٤) الذاريات: ٥٥.

(٥) العقيدة من خلال الفطرة: آية الله جوادي: ١٧.

٤ ــ الآيات التي أشارت إلى نسيان الإنسان لله تعالى، ونسيان ما ذُكّر به، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [١]، وقد سبق بيان وجه دلالة هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [٢].

وقوله سبحانه: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [٣].

وقوله ــ جلا وعلا ــ : ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [٤].

والوصف بالنسيان في هذه الآيات ــ وغيرها ــ دليل على معرفة سابقة نسيت إما باستحواذ الشيطان أو الغفلة أو الذنوب أو غير ذلك.

وهذا الوصف بالنسيان الوارد في الآيات ليس خاصاً بأناس لهم سابقة إيمان أو بأهل كتاب بل هو عام بكل من استحوذ عليه الشيطان فأعرض عن الله وديـنه ، وهذا دليل على أن هناك معرفة في باطن كل إنسان وهي الفطرة التي فطر الله الخلق عليها.

٥ ــ الآيات التي تبين لجوء الإنسان إلى الله في حال الشدة واشتداد الخطوب . ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى

---

(١) الأنعام: ٤٤.

(٢) المجادلة: ١٩.

(٣) الحشر: ١٩.

(٤) التوبة: ٦٧.

ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (١).

أي دعوه تعالى من غير إشراك لرجوعهم من شدة الخوف إلى الفطرة التي جُبل عليها كل أحد من التوحيد وأنه لا متصرف إلا الله سبحانه (٢).

وعن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: « لما كان يوم الفتح فرّ عكرمة بن أبي جهل فركب البحر فأصابتهم عاصفة فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة : أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً، فقال عكرمة: لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص ما ينجيني في البر غيره ، اللهم إن لك عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده فلأجدنه عفواً كريماً، قال سعد: فجاء فأسلم » (٣).

ومن الآيات الواردة تحت هذا النوع من أدلة القرآن الكريم على الفطرة: قوله تعالى:﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾(٤).

وهذا فرعون العنيد يعترف بالله ساعة الضر والهلاك، قال تعالى:

---

(١) يونس: ٢٢.

(٢) تفسير الألوسي: ٩٧/١٧.

(٣) حديث سعد هذا أصله في الصحيحين ، ولكن قصة ركوب عكرمة للبحر أخرجها ابن أبي شيبة في مصنفه ٤٠٤/٧ برقم ٣٦٩١٣، والبزار في مسنده برقم ١١٥١، والنسائي في السنن الكبرى، حكم المرتد ٣٠٢/٢، وفي الصغرى باب الحكم في المرتد ١٠٦/٧، وأبو يعلى في مسنده برقم ٧٥٧، والشاشي في مسنده برقم ٧٣، والطبراني في المعجم الكبير برقم ١٠١٩، والبيهقي في السنن الكبرى، باب من قال في المرتد يستتاب في مكانه فإن تاب وإلا قتل ٢٠٥/٨، وابن عبدالبر في التمهيد ١٧٥/٦.

(٤) الإسراء: ٦٧.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ (٢).

فهذا الرجوع إلى الله تعالى من سائر الناس ساعة الكرب والشدة دليل على ما هو كامن في نفوسهم من الفطرة التي فطرهم الله تعالى عليها.

٦ ــ الآيات التي سجلت إجابات المشركين الذين لم يدينوا بدين سماوي، والتي بينت مافطرهم الله عليه من الاعتراف بأنه الخالق الرازق المدبر.

ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٣).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (٤).

---

(١) يونس: ٩٠.

(٢) الزمر: ٨.

(٣) العنكبوت: ٦٣.

(٤) الزمر: ٨.

وهـــذا الإقـــرار الوارد من هؤلاء المشركين ـــ في هذه الآيات وغيرها ـــ دليل على ما فطرهم الله عليه، و"ما تملك فطرة أن تقول غير هذا، وما يستطيع عقل أن يعلل نشأة السماوات والأرض إلا بوجود إرادة عليا.

فهو يأخذهم ويأخذ العقلاء جميعاً بهذه الحقيقة الفطرية الواضحة" (١).

٧ ـــ الآيـــات التي تبين أن الإنسان مفطور على معرفة ربه تعالى قبل أي دليل يدل على ذلك.

ومـــنها قوله تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ (٢)، ووجـــه دلالتها بيّنه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: "ذُكر [أي الرب] في الموضعين بالإضافة التي توجب التعريف، وأنه معروف عند المخاطـــبين، إذ الـــرب معروف عند العبد بدون الاستدلال بكونه خلق، وأن المخلوق مع أنه دليل وأنه يدل على الخالق، لكن هو معروف في الفطرة قبل هذا الاستدلال، ومعرفته فطريّة، مغروزة في الفطرة، ضرورية بديهية أولية" (٣).

"وإذا كان كذلك فكل إنسان في قلبه معرفة بربه، فإذا قيل له "أقرأ باسم ربـــك" عـــرف ربـــه الذي هو مأمور أن يقرأ باسمه، كما يعرف أنه مخلوق، والمخلوق يستلزم الخالق ويدل عليه" (٤).

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب: ٣٠٥٣/٤

(٢) العلق: ١-٣.

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٣٢٤/١٦.

(٤) المصدر السابق: ٣٢٨/١٦.

ثانياً: الأدلة من السنة الشريفة على وجود الفطرة:

وقد تنوعت دلالة السنة أيضاً على وجود الفطرة كما تنوعت دلالة القرآن الكريم على ذلك، ويمكن ترتيب هذه الأدلة تحت الأنواع التالية:

١ ــ الأحاديث التي صرّحت أن كل مولود يولد على الفطرة ومنها:

حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ قال: قال رسول الله ــ ﷺ ــ : «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء**» ، ثم يقول أبو هريرة ــ رضي الله عنه ــ : "فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم".

وهذا الحديث هو العمدة في هذا الباب وله طرق كثيرة وألفاظ عدة [(١)].

---

(١) وممن أخرج هذه الطرق جميعها أو بعضها: البخاري في صحيحه كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ٤٥٦/١، وفي باب ما قيل في أولاد المشركين ٤٦٥/١، وفي كتاب التفسير، تفسير سورة الروم ١٧٩٢/٤، وفي كتاب القدر باب الله أعلم بما كانوا عاملين ٦/ ٢٤٣٤. ومسلم في صحيحه كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٢٠٤٧/٤، حديث رقم ٢٦٥٨، مالك في الموطأ كتاب الجنائز، باب جامع الجنائز ٢٤١/١، وأبو داود الطيالسي في مسنده، الحديث رقم ٢٣٥٩ و٢٤٣٣، وعبدالرزاق في المصنف: باب الصلاة على ولد الزنا ٥٣٣/٣، وباب البيات ٢٠٢/٥، وباب القدر ١١٩/١١، وفي صحيفة همام بن منبه برقم ٦٦ ص ٤٥، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة برقم ٩٩٥ و٩٩٦ و٩٩٧ و ٩٩٨ و٩٩٩ و١٠٠٠، والحميدي في مسنده، الحديث رقم ١١١٣، وابن أبي شيبة في المصنف ٦ /٢٨٨ و٤٨٤، وأحمد في المسند، الحديث رقم ٧١٨١ و٧٤٤٣ و٧٤٤٤ و٧٧١٢ و٧٧٩٥ و ٨١٧٩ و٨٥٦٢ و٩١٠٢ و٩٣١٧ و١٠٢٤١ و١٤٨٠٥، وأبو داود في سننه كتاب السنة، باب في ذراري المشركين ٢٢٩/٤، والترمذي في سننه كتاب القدر، باب ما جاء كل مولود يولد على الفطرة ٤٤٧/٤، وابن أبي عاصم في الاحاد والمثاني ٣٧٥/٢، وأبو يعلى في مسنده، الحديث رقم ٩٤٢ و٦٣٠٦ و٦٣٩٤ و٦٥٩٣، والخلال في السنة من رقم ٨٧٨-٨٨٤، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، الأصل ٦٤ في معنى الفطرة الأصلية ٣٠٨/١، وابن حبان في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الفطرة ٣٣٦/١، والطبراني في الكبير، الحديث رقم ٨٢٦ و٨٢٧ و٨٢٨ و٨٢٩=

منها ما ورد عن الأسود بن سريع ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ :« **أو ليس خياركم أولاد المشركين** [1]**، ما من مولود إلا يولد على فطرة الإسلام حتى يعرب عنه لسانه، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**".

وعن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « **كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فإذا أعرب عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً** ».

وهذا التصريح في هذه الأحاديث بأن كل مولود يولد على الفطرة دليل على وجودها.

٢ ـ الأحاديث التي ذكرت الميثاق الذي أخذه الله على بني آدم جميعاً ومنها:

حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض**

=و٨٣٠ و٨٣١ و٨٣٢ و٨٣٣ و٨٣٤ و٨٣٥، وفي الأوسط، الحديث رقم: ١٩٨٤ و ٤٠٥٠ و٤٩٤١ و٥٣٥٠ و٦١٣٤، وفي موارد الظمآن ١/٣٩٩ رقم ١٦٥٨، وفي بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث رقم ٦٤٦، والطبراني في مسند الشاميين رقم ١١٠ و١١٩، وابن حيان في طبقات المحدثين، في ترجمة محمد بن عبدالرحمن بن شبيب ٣/٤٦٩، والإسماعيلي في معجم شيوخه ٣/٧٦١، والدارقطني في العلل ٨/٢٨٨، وأبو نعيم في الحلية ٨/٢٦٣ ٩/٢٦ و٢٢٨، والبيهقي في سننه، باب الولد يتبع أبويه ٦/٢٠٢، وفي باب النهي عن قصد النساء والولدان بالقتل ٩/٧٧، وفي شعب الإيمان، باب القول فيمن يكون مؤمناً بإيمان غيره ١/٩٧، وفي الاعتقاد، باب القول في الأطفال ١/١٦٤-١٦٥، والبغدادي في تاريخه، ترجمه (يموت) ٣/٣٠٨ وترجمة (الحسن البلخي) ٧/٣٥٥، وابن عبدالبر في التمهيد ١٨/٥٧ و٥٨ و٦٢ و٦٥ و٦٨ و٩٨ و١٤١ ، والديلمي في الفردوس ٣/٢٤٨، والهيثمي في مجمع الزوائد، باب ما جاء في الأطفال ٧/٢١٨.

(١) أي أن خياركم هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار وهؤلاء من أولاد المشركين ولم يضرهم ذلك. انظر: الدرء ٨/٣٦٣.

مـــن شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون مـــن ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشـــرك بي » [(١)]. وغيره من الأحاديث التي ذكرت الميثاق ـــ وسيأتي ذكرها بالتفصيل في الباب الثالث في روايات الميثاق ـــ [(٢)].

ووجـــه دلالـــتها على وجود الفطرة أن جمعاً من أهل العلم فسَّر الفطرة بالميثاق [(٣)].

٣ـــ دلالـــة السنة على أن الله ـــ جل وعلا ـــ خلق الخلق على الحنيفية والتوحيد ، أي على الفطرة:

فعن عياض بن حمار المجاشعي ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال ذات يوم في خطبته: « **ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومـــي هـــذا، كل مال نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهـــم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأَمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً** » [(٤)].

٤ ـــ الأحاديث التي وصفت الإسلام والسنة بالفطرة ومنها:

قوله ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ : «**إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصـــلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل اللهم أسلمت وجهي إليك،**

---

(١) رواه أحمد بلفظه في مسنده الحديث رقم ١٢٢٨٩، وأخرجه مسلم بنحوه في صحيحه باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً ٤/٢١٦٠ حديث رقم ٢٨٠٥.

(٢) انظر: الباب الثالث، الفصل الثاني، المبحث الثاني: روايات الميثاق ص ٥٠٣-٥٢٠.

(٣) انظر: الفصل التالي من هذا الباب المبحث الرابع ص ١٢٥-١٣٠.

(٤) أخـــرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٤/٢١٩٧، حديث رقم ٢٨٦٥.

وفوضت أمري إليك وألجات ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فإن مُتَّ من ليلتك مُتَّ على الفطرة » [(١)].

وقوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ : « **خمس من الفطرة** » وفي رواية «**عشر من الفطرة** » [(٢)]، وفي لفظ : « **عشر من سنن الإسلام** » [(٣)].

وحديث: « كان رسول الله ــ ﷺ ــ يغير إذا طلع الفجر وكان يستمع الأذان فإذا سمع أذاناً أمسك وإلا أغار، فسمع رجلاً يقول: الله أكبر، الله أكبر، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ على الفطرة » .

وقوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ : « **لا تزال أمتي بخير أو قال على الفطرة ما لم يؤخروا المغرب إلى أن تشتبك النجوم** » [(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب فضل من بات على الوضوء ٩٦/١، كتاب الدعوات، باب إذا بات طاهراً ٢٣٢٥/٥، وباب ما يقول إذا نام ٢٣٢٦/٥، وفي باب النوم على الشق الأيمن ٢٣٢٧/٥، وفي كتاب التوحيد، باب قول الله أنزله بعلمه ٢٧٢٢/٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٢٠٨١/٤، حديث رقم ٢٧١٠.

(٢) أخرجها مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة ٢٢٣/١، حديث رقم ٢٦١.

(٣) انظر: مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ٣٣٤/٢، وقد بحثت عن هذا اللفظ في كتب السنة و لم أقف عليه.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، الحديث رقم ١٧٣٢٩ و[٢٣٥٨١، ٢٣٥٨٢، ٢٣٦٢١ طبعة قرطبة]، والدارمي في سننه باب كراهية تأخير المغرب ٢٢٩٧/١، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في وقت المغرب ١١٣/١، وابن ماجه في سننه، كتاب الصلاة، باب وقت صلاة المغرب ٢٢٥/١، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التغليظ في تأخير صلاة المغرب ١٧٤/١،والطبراني=

وغيرها من الأحاديث التي وصف الرسول ـــ ﷺ ـــ الإسلام فيها بالفطرة مما يدل على وجودها.

=في الكبير برقم ٤٠٨٣ و٦٦٧١، وفي الأوسط برقم ١٧٩١، وفي الصغير برقم ٥٦، والحاكم في المستدرك، كتاب الصلاة، باب في مواقيت الصلاة ٣٠٣/١، والبيهقي في السنن الكبرى، باب وقت المغرب ٣٧٠/١، وفي باب كراهية تأخير المغرب ٤٤٨/١.

ثالثاً: الأدلة العقلية على وجود الفطرة، ومنها [١]:

١ ــ أن الإنسان قد يحصل له تارة من الاعتقادات والإرادات ما يكون حقاً، وتارة ما يكون باطلاً، فالإنسان حساس متحرك بالإرادة كما قال ــ عليه الصلاة والسلام ــ : « **أصدق الأسماء: حارث وهمام** » [٢].

وعلى هذا فلا يخلو: إما أن تكون نسبة نفسه إلى النوعين نسبة واحدة، بحيث لا يترجح أحد الأمرين على الآخر بمرجح من نفسه، أو لابد أن تكون نفسه مرجحة لأحد النوعين.

والأول خلاف المعلوم بالضرورة، فإنا نعلم أنه إذا عرض على كل أحد أن يعتقد الحق ويصدق، وأن يريد ما ينفعه، وعرض عليه أن يعتقد الباطل ويكذب ويريد ما يضره، مال إلى الأول ونفر عن الثاني.

وإذا كان لابد من ترجيح نفسه لأحد النوعين، فإن ترجيح الكذب الضار مع فرض تساوي المرجحين أولى بالامتناع من تكافئهما، فتعين أنه إذا تكافأ المرجحان فلا بد أن يترجح عنده الصدق والنفع، وهو المراد باعتقاد الحق وإرادة الخير، وهذا دليل أن في الإنسان قوة تقتضي اعتقاد الحق وإرادة النافع وهي الفطرة.

٢ ــ أن النفوس إذا حصل لها معلّم ومخصص، حصل لها من العلم

---

(١) انظر: الدرء لابن تيمية: ٤٥٦/٨-٤٦٨، وشفاء العليل لابن القيم: ٥١٦-٥٢٠.

(٢) هذا اللفظ جزء من حديث طويل، وقد أخرج هذا الجزء أحمد في مسنده برقم ١٩٠٥٤ [طبعة قرطبة]، والبخاري في الأدب المفرد باب أحب الأسماء إلى الله ص ٢٨٤، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء ٢٨٧/٤، وابن أبي عاصم في الاحاد والمثاني ٢٤٠/٥، وأبو يعلى في مسنده رقم ٧١٦٩، والطبراني في الكبير برقم ٧٥٣ و٧٥٤ و٩٤٩، وفي الأوسط ٦٩٨، والبيهقي في سننه الكبرى، باب ما يستحب أن يسمى به ٣٠٦/٩، وفي شعب الإيمان ٣٩٤/٦.

والإرادة بحسب ذلك، ومن المعلوم أن كل نفسٍ قابلة للعلم وإرادة الحق، ومعلوم أن مجرد التعليم والتحضيض لا يوجب العلم والإرادة، لولا أن في النفس قوة تقبل ذلك، وإلا فلو علّم البهائم والجمادات وحضضها لم يحصل لها ما يحصل لبني آدم، والسبب في الموضعين واحد، وهذا دليل على وجود قوة في النفس لطلب الحق وترجيحه على غيره وهي الفطرة.

٣ ــ أنّا لو فرضنا توقف معرفة النفس للحق ومحبته على سبب خارج عن ذاتها، فإننا نجد في كل نفس ما يدفعها إلى قبول الحق ورفض الباطل مما يعرض لها من خارج ذاتها.

وهذا دليل على وجود الفطرة التي تدفع النفس إلى هذا القبول والرفض.

٤ ــ أن كل نفس إذا لم يعرض لها مصلح ولا مفسد من خارج ذاتها، فإننا نجدها تطلب ما ينفعها وتحاول أن تدفع عنها ما يضرها، والدليل على ذلك أنا نجد الطفل مدفوعاً إلى لبن أمه ما لم يعرض له مانع كمرض فيه أو في أمه أو غير ذلك، مما يوجب نفوره عن شرب لبنها.

ومعنى هذا أن حب الإنسان لما ينفعه مركوز فيه وهذا دليل على وجود الفطرة.

رابعاً: شهادة الحس (الواقع) على وجود الفطرة:

١ ــ عدم وجود مجتمع بلا دين:

إن فطرة الإنسان تأبى عليه الإلحاد ولذلك كان التدين والبحث عن الدين شاهداً على وجود هذه الفطرة في أعماق كل إنسان.

« ولقد بلغ من حيوية هذه الفطرة أن حاول مجموعة من الناس إقامة دين جديد ينبثق منها، ويعتمد في الإلزام على وحيها الباطني، وسمّوه الدين الطبيعي»[١].

وقد أجمع علماء المقابلة بين الأديان على أن العقيدة الدينية قديمة قدم الإنسان [٢]، ففي معجم "لاروس": « إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية، حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية»[٣].

ويؤكد هذا المؤرخ الإغريقي بلو تارك فيقول: « قد وجدَت في التاريخ مدن بلا حصون.. ولا قصور..ولا مدارس..ولكن لم توجد أمة بلا معابد»[٤].

ويقول هنري برجسون: « نرى في السابق أو في الحاضر مجتمعات إنسانية لاحظ لها من علم أو فن أو فلسفة، ولكنا لا نعرف مجتمعاً لا دين له » [٥].

---

(١) مصادر المعرفة للزنيدي: ٣٩١.

(٢) انظر: الدين وحاجة الإنسان إليه محمود مزروعة: ٢٠.

(٣) بحوث في الثقافة الإسلامية لعبد الظاهر وآخرون: ٣٩.

(٤) بحوث في الثقافة الإسلامية لعبد الظاهر وآخرون: ٣٩.

(٥) مقال في الإنسان فرج: ١١٢.

ويقول أوجست ساباتييه في كتابه فلسفة الأديان: « لماذا أنا متدين؟ إني لم أحـــرك شفتي بهذا السؤال مرة إلا وأراني مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب، وهو أنا متدين. لأني لا أستطيع خلاف ذلك، لأن التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي، يقولـــون لي: ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج، فأقول لهم قد اعترضت على نفسي كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ولكني وجدته يعقدّ المسألة ولا يحلها » [(١)].

وعلى هذا فإنه يمكن أن يطلق على الإنسان أنه حيوان متدين بفطرته، كما يعرّف بكونه حيوان ناطق أو حيوان مفكر أو مدني بطبعه [(٢)]. ولا يلزم ـــ مما ســـبق ـــ أن كل من تدين بفطرته فدينه صحيح أو موافق للفطرة، لأن الفطرة ليست حجة في ذاتها مستقلة، فهي تتأثر بعوامل كثيرة، لكن مع ذلك بقي أثرها مع وجود العوامل المؤثرة فيها، فقادت أقواماً كُثر للبحث عن الدين الحق، ولو سَلِمت من المؤثرات الفاسدة لقادتهم إلى ذلك.

٢ ـــ ظهـــور التساؤلات الفطرية عن الكون والحياة والإنسان، وانبعاث هذه التساؤلات مباشرة بعد اكتساب اللغة في أول سن التمييز.

يقول سانت هيلير: "هذا اللغز العظيم الذي يستحث عقولنا: ما العالم؟ ما الإنســـان؟ من أين جاءا؟ من صنعهما؟ من يدبرهما؟ ما هدفهما؟ كيف بدءا؟ كـــيف ينتهيان؟ ما الحياة؟ ما الموت؟ ما القانون الذي يجب أن يقود عقولنا في أثناء عبورنا في هذه الدنيا؟ أي مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة؟ هل يوجد شيء بعـــد هذه الحياة العابرة؟ وما علاقتنا بهذا الخلود؟ هذه الأسئلة لا توجد أمة ولا شعب ولا مجتمع إلا وضع لها حلولاً جيدة أو رديئة، مقبولة أو سخيفة، ثابتة أو

---

(١) بحوث في الثقافة الإسلامية لعبد الظاهر وآخرون: ٣٨.

(٢) انظر: المصدر السابق: ٣٩.

متحولة » [١].

ويعترف آخر بالتفكير في هذه الأسئلة فيقول: « مهما يكن تقدمنا العجيب في العصر الحاضر.. فإن عقلنا في أوقات الهدوء والراحة والسكون ــ عظماء كنَّا أو متواضعين، أخياراً كنَّا أو أشراراً ــ يعود إلى التأمل إلى المسائل الأزلية » [٢].

ويقول يوسف إسلام وهو يتحدث عن إسلامه وعن رحلته في البحث عن الدين الحق، ويبين كيف كانت أسئلة الفطرة تجول بداخله ويبحث لها عن جواب: « بدأت أفكر، وأبحث عن السعادة التي لم أجدها في الشهرة ولا في القمة ولا في المسيحية فطرقت باب البوذية، والفلسفة الصينية وصرت قدرياً وآمنت بالنجوم..ولكني وجدت ذلك كله هراء ثم انتقلت إلى الشيوعية ، ولكني شعرت أن الشيوعية لا تتفق مع الفطرة فأيقنت ــ إذ ذاك ــ أن ليست هناك عقيدة تعطيني الإجابة وتوضح لي الحقيقة ــ و لم أكن أعرف عن الإسلام شيئاً بعد ــ ... لقد أجاب القرآن عن كل تساؤلاتي وبذلك شعرت بالسعادة، سعادة العثور على الحقيقة، ووجدت في القرآن كيف أن هذه السعادة هي الخالدة » [٣].

٣ ــ اقتراب البشرية شيئاً فشيئاً من مبادئ الإسلام، وقد تجلى هذا في عصرنا الحاضر في المطالب التي طرحها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، وهناك أمثلة أخرى كثيرة [٤]تبين أن البشرية تقترب ــ نظرياً على الأقل ــ من كثير

---

(١) وظيفة الدين في الحياة للزحيلي: ٣٥.

(٢) إن الدين عند الله الإسلام شلبي: ٣٢-٣٣.

(٣) مصادر المعرفة للزنيدي: ٣٥٠-٣٥١.

(٤) ومن هذه الأمثلة: المطالبة بالطلاق، وبالقصاص، وأحكام الميراث،وعودة المرأة إلى بيتها وغير=

ممـــا جـــاء به الإسلام، وجاء به الأنبياء والرسل جميعاً، وهذا دليل على وجود الفطرة في نفوس هؤلاء البشر جميعاً [١].

٤ ـــ أن هناك اتفاقاً في عقول الناس وفطرهم على قبول ما اعتبره الإسلام معروفاً، واستنكار ما اعتبره منكراً، والارتياح لما اعتبره طيّباً، والنفور مما اعتبره خبيـــثاً، وإذا كـــان واقع أكثر الناس يشهد بخلاف هذا، فالسبب يعود إلى ما يحصل للفطرة من التغيير [٢].

٥ ـــ وجود من سلمت فطرته فأنكر على قومه ما هم فيه من الشرك بالله تعـــالى، فأقـــر بالخـــالق تعالى و لم يشرك به، وقد مثّل شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ رحمـــه الله ـــ حـــال فطرة هؤلاء بقوله: « مثل الفطرة مع الحق: مثل ضوء العـــين مـــع الشـــمس، وكـــل ذي عين لو ترك بغير حجاب لرأى الشمس، والاعتقادات الباطلة... مثل حجاب يحول بين البصر ورؤية الشمس، وكذلك أيضاً كل ذي حس سليم يحب الحلو، إلا أن يعرض في الطبيعة فساد يحرفه حتى يجعـــل الحلـــو في فمه مراً » [٣]، ومن هؤلاء الذين سلمت فطرتهم فاستدل بما حوله من الآيات المبثوثة في الكون على الخالق تعالى، قس بن ساعدة ، فقد كان يخطـــب في الأسواق والاجتماعات العامة يبين للناس ما هم فيه من ضلال ومن أقوالـــه في ذلك: « من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر

=ذلـــك من الشهادات والأمثلة والمؤتمرات التي تؤكد قرب الناس كما ذكرنا ولو نظرياً من دين الفطرة الإسلام.

انظـــر على سبيل المثال: شريعة الكمال/ لعبدالوهاب صالح ٤١-٥١ وغيرها، والتشريع الإسلامي وحاجتنا إليه، لمحمد الصباغ.

(١) انظر: دلائل التوحيد للقاسمي ١٣٦، دليل الأنفس لعز الدين ٢٧.

(٢) انظر: دلائل التوحيد للقاسمي ١٣٦، دليل الأنفس لعز الدين ٢٧.

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٤/٢٤٧.

ونبات، وأحياء وأموات، ليل داج، وسماء ذات أبراج.. أيها الناس: إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم هذا الذي أنتم عليه، بل هو إله واحد ليس بمولود ولا والد »[١].

وممن تبين له بفطرته ضلال الشرك وعبادة الأصنام: ورقة بن نوفل، وعبيدالله بن جحش وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل ، فقد امتنعوا عن مشاركة أقوامهم في عبادة الأصنام وتعاهدوا على طلب دين غير عبادة الأصنام وكان مما قالوا: تعلّموا والله ما قومكم على شيء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً، فإنكم والله ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ "[٢].

فهذه الأمور الخمسة وغيرها شهادات من واقع الناس وتاريخهم على وجود الفطرة، وأنها إذا سَلِمت من الحجب والمؤثرات تقودهم إلى الحق والنجاة.

---

(١) هذه الخطبة لها ألفاظ عدة وقد ذكرها بطرقها وألفاظها، ابن كثير في البداية والنهاية ٣/٢٩٩-٣١٥، والطبراني في الكبير برقم ١٢٥٦١.

(٢) السيرة النبوية/لابن هشام: ٢/٥١.

الفصل الثاني

أقوال أهل السنة في معنى الفطرة ومناقشتها وبيان الراجح منها

وفيه تمهيد وخمسة مباحث:

التمهيد: سبب الاختلاف في معنى الفطرة عند أهل السنة

المبحث الأول: القول بأن الفطرة هي الخلقة.

المبحث الثاني: القول بأن الفطرة هي البداءة.

المبحث الثالث: القول بأن الفطرة هي ما فطر الله عليه بني آدم من الإنكار والمعرفة والكفر والإيمان.

المبحث الرابع: القول بأن الفطرة هي الميثاق.

المبحث الخامس: القول بأن الفطرة هي الإسلام.

التمهيد

سبب الاختلاف في معنى الفطرة عند أهل السنة :

اختلفت أقوال أهل السنة في معنى الفطرة إلى أقوال عدة، ويمكن حصر أسباب هذا الاختلاف في ثلاثة أمور:

١ ـ أن القدرية كانوا يحتجون بحديث الفطرة على أن الكفر والمعاصي ليست بقدر الله، بل مما فعله الناس، لأن كل مولود يولد خلقه الله على الإسلام، وكفره بعد ذلك من الناس.

ولهذا لما قيل للإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ : إن أهل الأهواء يحتجون علينا بهذا الحديث أي حديث الفطرة فقال ـ رحمه الله ـ: احتج عليهم بآخره، « قالوا: أرأيت من يموت وهو صغير قال: الله أعلم بما كانوا عاملين [١]» . ولأجل هذا الاحتجاج من القدرية صار الناس يتأولون حديث الفطرة تأويلات يخرجونه بها عن مقتضاه[٢].

والرد على هذا الاحتجاج وبيان فساده سيأتي فيما بعد [٣].

---

(١) قول الإمام مالك هذا، أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٣/٥٦٥ رقم ١٠٠٠، وأبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في ذراري المشركين ٤/٢٢٩.

(٢) انظر: الدرء لابن تيمية ٨/٣٦٢، وشفاء العليل لابن القيم ٤٨٨، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ٢/٣٥٠.

(٣) انظر: الباب الثاني/الفصل الأول: ٢٦٥.

٢ ــ اشتباه أحكام الكفر في الدنيا بأحكام الكفر في الآخرة، فإن أولاد الكفار لما كانوا يجري عليهم أحكام الكفر في أمور الدنيا، مثل ثبوت الولاية عليهم لآبائهم، وحضانة آبائهم لهم وتمكين آبائهم من تعليمهم وتأديبهم، والموارثة بينهم وبين آبائهم، واسترقاقهم إذا كانوا محاربين وغير ذلك.

صار يظن البعض أنهم كفار في نفس الأمر، كالذي تكلم بالكفر وعمل به سواء بسواء، وهذا خطأ في الحكم، لأن كونهم ولدوا على الفطرة لا ينافي كونهم تبعاً لآبائهم في أحكام الدنيا، فقد يكون في بلاد الكفر من يكتم إيمانه ولا يعلم المسلمون حاله إذا قاتلوا الكفار، فيقتلونه ولا يغسّل ولا يصلى عليه ويدفن مع المشركين وهو في الآخرة من المؤمنين أهل الجنة، كما أن المنافقين تجري عليهم في الدنيا أحكام المسلمين وهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار، فحكم الدار الآخرة غير حكم الدار الدنيا[1].

وقوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ: « **كل مولود يولد على الفطرة** » إنما أراد به الإخبار بالحقيقة التي خلقوا عليها، وعليها الثواب والعقاب في الآخرة إذا عملوا بموجبها وسلمت عن المعارض، ولم يرد بهذا الحديث الإخبار عن أحكام الدنيا ، لأنه قد علم بالاضطرار من شرع الرسول ــ ﷺ ــ أن أولاد الكفار يكونون تبعاً لآبائهم في أحكام الدنيا.

٣ ــ اعتماد البعض من أصحاب هذه الأقوال على المعنى اللغوي للفطرة، دون النظر في النصوص الشرعية التي فسرت الفطرة بمعنى خاص غير المعنى اللغوي [2].

٤ ــ توهم البعض التعارض بين النصوص الواردة في الفطرة وبين بعض

---

(١) انظر: الدرء لابن تيمية ٨/٤٣٢-٤٣٣.

(٢) انظر: فتح القدير للشوكاني ٤/٢٢٤.

النصوص الأخرى كقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [١]. وغيرها من النصوص.

ثم لا يجدوا جواباً على هذا التعارض إلا تأويل المراد بالفطرة ، فكان هذا التأويل وهذا التوهم للتعارض سبباً للاختلاف في حقيقة الفطرة [٢].

وهذه الأمور الأربعة مجتمعة من أهم الأسباب التي أدت إلى تعدد واختلاف أقوال أهل السنة في حقيقة الفطرة.

---

(١) النحل: ٧٨.

(٢) انظر: بحث قرآني فطرة الله لفرحات: ١٣.

المبحث الأول

القول بأن الفطرة هي الخلقة

قال ابن عبدالبر ــ رحمه الله ــ: قالت جماعة من أهل الفقه والنظر: أريد بالفطرة المذكورة في الحديث الخلقة التي خُلق عليها المولود في المعرفة بربه، فكأنه قال: كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربّه إذا بلغ مبلغ المعرفة، يريد خلقة مخالفة لخلقة البهائم التي لا تصل بخلقتها إلى معرفة ذلك، وأنكروا أن يكون المولود يفطر على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار، قالوا: وإنما يولد المولود على السلامة في الأغلب خلقة وطبعاً وبنيّة ليس معها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة، ثم يعتقدون الكفر أو الإيمان بعد البلوغ إذا ميزوا [١].

وقال ابن الأثير ــ رحمه الله ــ: معنى الفطرة الواردة في الحديث أن المولود يولد على نوع من الجبلة والطبع المتهيء لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستمر ملازماً لها و لم يفارقها إلى غيرها[٢].

وفي فيض الباري[٣]: «الفطرة من مقدمات الإسلام لا عينه، فهي جبلة متهيئة لقبول الإسلام، وبعبارة أخرى هي استعداد في الولد له بُعد من الكفر

---

(١) انظر: التمهيد: ١٨/٦٨ - ٦٩.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير مادة (فطر) ٣/٤٥٧.

(٣) فيض الباري على صحيح البخاري/ لمحمد أنور الكشميري الديوبندي.

وقرب من الإسلام. وبعبارة أخرى هي عبارة عن خلو نيته عما يحثه على الكفر وحينـــئذ حاصل الحديث أن الولد المولود من بطن كافر ليس في بنيته جزء من الكفر ولولا القوادح والموانع لبقي أقرب إلى الإيمان وأقبل له » [١].

وبهذا يتبين أن مراد أصحاب هذا القول بقولهم الفطرة هي الخلقة ما يلي:

١ــ خلقة مخالفة لخلقة البهائم، يعرف بها ربّه إذا بلغ مبلغ المعرفة.

٢ــ السلامة التي ليس معها كفر ولا إيمان ولا معرفة ولا إنكار، ثم يعتقد بعد البلوغ.

٣ ــ الاســـتعداد والتهيء والقبول، الذي إذا سلم من الموانع والقوادح اختار الإيمان والمعرفة، وذلك لوجود بُعد من الكفر وقرب من الإسلام في هذا الاستعداد.

أصحاب هذا القول:

اختار هذا القول ورجّحه وصحّحه جمع من أهل العلم منهم:

ابـــن عـــبد البر ــ رحمه الله ــ حيث قال: « هذا القول أصح ما قيل في معـــنى الفطـــرة التي يولد الناس عليها -والله أعلم- وذلك أن الفطرة السلامة والاستقامة » [٢].

والسبكي ــ رحمه الله ــ حيث يقول: « الذي نختاره وعليه أكثر العلماء أن المراد بالفطرة الطبع السليم المتهيء لقبول الدين » [٣].

---

(١) فيض الباري: كتاب الجنائز ٢/٤٨٥.

(٢) التمهيد: ١٨/٧٠.

(٣) كل مولود يولد على الفطرة: ١٦.

وممن قال به أيضاً من العلماء: الطحاوي[١]، والخطابي[٢]، وابن عطية[٣]، وأبوبكر بن العربي[٤]، وابن الأثير[٥]، والقرطبي[٦]، والنووي[٧]، والبيضاوي[٨]، والنسفي[٩]، وابن جزي الكلبي[١٠]، وأبو السعود[١١]، والألوسي[١٢]، والديوبندي[١٣]، وغيرهم من العلماء.

---

(١) انظر: شرح مشكل الآثار ٤/١٧-١٩.

(٢) انظر أعلام الحديث ١/٧١٦.

(٣) انظر: المحرر الوجيز ١١/٤٥٣.

(٤) انظر: عارضة الأحوذي: ٨/٢٣٠.

(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث ٣/٤٥٧.

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٤/٢٩.

(٧) انظر: شرح مسلم ١٦/٢٠٨.

(٨) انظر: تفسير البيضاوي ٤/٣٣٥.

(٩) انظر: مدارك التنزيل: ٣/٢٧٣.

(١٠) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل ٣/٢٦٥-٢٦٦.

(١١) انظر: تفسير أبي السعود ٧/٦٠.

(١٢) انظر: روح المعاني ٢١/٤٠.

(١٣) انظر: فيض الباري: ٢/٤٨٥.

أدلة وحجج أصحاب هذا القول:

١ــ احتجوا على أن الفطرة الخلقة والفاطر الخالق بقول الله عز وجل: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [١] يعني: خالقهن، وبقوله تعالى: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ [٢] أي: خلقني، وغيرها من الآيات. فقالوا الفطرة الخلقة والفاطر الخالق بدلالة القرآن الكريم والسنة المطهرة [٣].

٢ ــ واحتجوا بقوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ في آخر الحديث « **كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء** » « وقالوا: جمعاء يعني سالمة، وجدعاء يعني مقطوعة الأذن. فمثّل قلوب بني آدم بالبهائم لأنها تولد كاملة الخلق ليس فيها نقصان، ثم تقطع آذانها بعد وأنوفها، فيقال هذه بحائر وهذه سوائب. وقالوا: قلوب الأطفال في حين ولادتهم ليس لهم كفر حينئذ ولا إيمان، ولا معرفة ولا إنكار، كالبهائم السالمة، فلما بلغوا، استهوتهم الشياطين فكفر أكثرهم، وعصم الله أقلهم » [٤].

٣ ــ قالوا: لو كان الأطفال قد فطروا على شيء ، من الكفر أو الإيمان في أولية أمرهم ما انتقلوا عنه أبداً، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون [٥].

٤ ــ قالوا: يستحيل في المعقول أن يكون الطفل في حين ولادته يعقل كفراً أو إيماناً، لأن الله أخرجهم في حال لا يفقهون معها شيئاً، قال

---

(١) فاطر: ١

(٢) يس: ٢٢.

(٣) انظر: التمهيد لابن عبدالبر ١٨/٦٩.

(٤) المصدر السابق: ١٨/٦٩-٧٠.

(٥) انظر: المصدر السابق ١٨/٧٠

الله ــ عــز وجــل ــ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾[١] فمن لا يعلم شيئاً استحال منه كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار[٢].

٥ ــ اســتدلوا بقوله ــ ﷺ ــ: « **إني خلقت عبادي حنفاء** » فقالوا: يعــني على استقامة وسلامة ، والحنيف في كلام العرب المستقيم السالم، فكأنه ــ والله أعلم ــ أراد الذين خلصوا من الآفات كلها والزيادات، ومن المعاصي والطاعات، فلا طاعة منهم ولا معصية ، إذا لم يعملوا بواحدة منهما، واحتجوا بأن موسى -عليه السلام- قال في الغلام الذي قتله الخضر قال تعالى: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾[٣] لمّــا كــان عنده ممن لم يبلغ العمل فيكسب الذنوب [٤].

٦ ــ اســتدلوا بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٥] وقوله ســبحانه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[٦] ومن لم يبلغ وقت العمل لم يرتهن بشيء [٧].

٧ ــ اســتدلوا بقولــــه ســبحانــه :﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[٨][٩].

---

(١) النحل: ٧٨.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٨/٧٠.

(٣) الكهف: ٧٤.

(٤) انظر: المصدر السابق ١٨/٧٠-٧١.

(٥) التحريم: ٧.

(٦) المدثر: ٣٨.

(٧) انظر: المصدر السابق ١٨/٧١.

(٨) الإسراء: ١٥

(٩) المصدر السابق: ١٨/٧١.

٨ ــ احتجوا بالاجماع على دفع القود والقصاص والحدود والآثام عن الأطفال في دار الدنيا، وقالوا لاشك أن الآخرة أولى بذلك [١].

٩ ــ قالوا إن تفسير الفطرة بالخلقة « من إطلاق القابل على المقبول، فإن الفطرة هي الخلقة، يقال: فطرة أي خلقة ، وخلقة الآدمي فرد من ذلك، وتهيؤها لقبول الدين وصف لها، فهذه ثلاث مراتب، وذلك المقبول وهو الدين أمر رابع، فاسم الفطرة أطلق غلبة وكأنه قال: مولود يولد مسلماً بالقوة » [٢].

١٠ ــ احتجوا بأن النبي ــ ﷺ ــ سمع في سفرٍ داعٍ يقول: الله أكبر الله أكبر، فقال: على الفطرة.

فلما شهد بالتوحيد والرسالة، قال ــ عليه الصلاة والسلام ــ خرج من النار.

فقالوا: إن الفطرة غير الإيمان، فإنه لم يحكم عليه بالنجاة اللازمة للإيمان، ما لم يسمع من الشهادتين مع حكمه عليه بكونه على الفطرة ، فالفطرة شيء لا يوجب النجاة بخلاف الشهادتين فهي مقدمة للإيمان [٣].

---

(١) المصدر السابق: ١٨/٧١.

(٢) كل مولود يولد على الفطرة للسبكي: ١٦.

(٣) انظر: فيض الباري للديوبندي: ٢/٤٨٥-٤٨٦.

مناقشة هذا القول والرد عليه:

١ ــ إن أراد أصحاب هذا القول بالفطرة مجرد خلق الطفل على حال وقدرة تمكنه من معرفة ربه إذا بلغ، فهذا لا يقتضي أن يكون حنيفاً ولا على الملة، ولا حاجة لأن يذكر الحديث تغيير أبويه لفطرته، ولا أن يُسأل الرسول ﷺ ــ عمن مات وهو صغير. لأن هذه القدرة موجودة عند كل أحد حتى المشركين، بل هي في الكبير أكمل منها عند الصغير، وإن أرادوا بالفطرة القدرة على المعرفة مع إرادتها، فالقدرة الكاملة مع الإرادة التامة تستلزم وجود المقدور، فدل على أنهم فطروا على القدرة على المعرفة وإرادتها وذلك مستلزم للإيمان والإسلام [١].

٢ ــ قولهم أن المولود يولد على السلامة ، وليس معها كفر ولا إيمان ولا معرفة ولا إنكار، قول فاسد يقتضي أنه لا فرق بالنسبة إلى الفطرة بين المعرفة والإنكار، والتهويد والتنصير والإسلام، وإنما ذلك بحسب الأسباب.

فكان ينبغي أن يقال: فأبواه يسلّمانه ويهودانه وينصرانه ويمجسانه، فلما ذكر الملل الفاسدة دون الإسلام، علم أن الفطرة قد تغيرت عن الإسلام إلى هذه الملل بسبب منفصل. وأيضاً لو كان الأمر كما قالوا لما كان لاستشهاد أبي هريرة بالآية على الحديث معنى[٢].

٣ ــ قولهم هذا يجعل نسبة الفطرة إلى المدح والذم سواء، وما كان كذلك لا يستحق مدحاً ولا ذمّاً، وقد ردّ عليهم القرآن والسنة، فالقرآن مدح الفطرة وأمر بلزومها، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ

---

(١) انظر : الدرء لابن تيمية ٣٨٥/٨.

(٢) انظر: المصدر السابق ٤٤٤/٨.

ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ ﴾[١] ولو كانت خالية كما قالوا ما استحقت المدح.

وفي الحديث شبّه الرسول ـ ﷺ ـ الفطرة بالبهيمة المجتمعة الخلق، وهذا مدح لأن الكمال محمود، وشبه ما طرأ عليها من الكفر بالجدع وهذا ذم، لأن النقص مذموم [٢].

٤ ـ إن كان مرادهم بهذا القول الفطرة السليمة التي لو تركت مع صحتها لاختارت المعرفة على الإنكار والإيمان على الكفر، فهذا يعني أن في الفطرة قوة تميل بها إلى المعرفة والإيمان، وهنا يقال : هل هذه القوة كافية في حصول المعرفة أو تقف على أدلة تعلمها من خارجها؟.

فإن كانت المعرفة تقف على أدلة من الخارج، أمكن أن توجد تارة وتعدم أخرى، وحينئذ فلا يكون في هذه القوة إلا قبول المعرفة والإيمان إذا وجدت من يعلمها أسباب ذلك. ومعلوم أن فيها قبول الإنكار والكفر إذا وجدت من يعلمها أسباب ذلك وهو التهويد والتنصير والتمجيس. وحينئذ فلا فرق فيها بين المعرفة والإنكار والإيمان والكفر، إنما فيها قوة قابلة لكل منهما واستعداد له، لكن يتوقف على المؤثر الفاعل الخارج.

وهذا هو ما سبق رده عليهم في قولهم بالسلامة التي ليس معها كفر ولا إيمان ولا معرفة ولا إنكار. أما إن كان فيها قوة تقتضي المعرفة بنفسها، وإن لم يوجد من يعلمها أدلة المعرفة، لزم أن يكون المقتضي للمعرفة حاصلاً لكل مولود، وهو الإسلام والإيمان، لأن المقتضى التام يستلزم مقتضاه [٣].

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) انظر: المصدر السابق ٨/٤٤٥.

(٣) انظر: المصدر السابق ٨/٤٤٥-٤٤٧.

٥ــ هذا القول موافق لمذهب القدرية الذين يقولون إن معرفة الله لا تحصل إلا بالنظر، وينكرون أن يكون الله فطر الناس على الإسلام والتوحيد، فهذا الزمخشري المعتزلي يفسر آية الفطرة فيقول:« والمعنى: أنه خلقهم قابلين للتوحيد، ودين الإسلام غير نائين عنه، ولا منكرين له، لكونه مجاوباً للعقل مساوقاً للنظر الصحيح، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر » [١].

٦ ــ يرد عليهم بأن الحديث ذكر أن البهيمة تولد سليمة من العيوب ثم يحدث لها الجدع بعد ذلك، ومعنى هذا أنها تخرج متصفة بصفات الكمال، وكذلك القلوب تولد سليمة من الكفر والإنكار، متصفة بالمعرفة والإيمان، وليس معنى هذا أن الطفل يولد وهو يعلم الدين و الإيمان، فالله تعالى يقول: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [٢] إنما يولد الطفل وفيه قوة وتمكن وإرادة لذلك، بحيث لو ترك وعدم المعارض لما كان إلا مسلماً [٣].

٧ ــ قولهم بأن الفطرة هي الخلقة، تعريف للفطرة بمعناها اللغوي وإهمال للمعنى الشرعي، والمعنى الشرعي مقدم على المعنى اللغوي باتفاق أهل الشرع، ولا ينافي ذلك ورود الفطرة في الكتاب والسنة في بعض المواضع مراداً بها المعنى اللغوي، كالآيات التي استدلوا بها [٤].

٨ ــ إنكارهم أن يفطر المولود على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار ، لا دليل عليه، بل هو مخالفة لصريح الآية، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ

---

(١) الكشاف للزمخشري: ٣/٤٧٩.

(٢) النحل: ٧٨.

(٣) منهج الاستدلال لعثمان حسن: ١/١٨٨ - ١٨٩.

(٤) انظر: فتح القدير للشوكاني ٤/٢٢٤، وفطرية المعرفة لحمدان ١٧٨.

حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [١] وكذا لصريح الأحاديث ومنها: (**ما من مولود إلا يولد على الفطرة ــ وفي رواية ــ على الملة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**) وحديث: (**كل مولود يولد من ولد كافر أو مسلم، فإنه يولد على الفطرة، على الإسلام كلهم، ولكن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم...**)[٢]، فقد دلت كل هذه الأدلة على أن المولود يولد على حالٍ مرضية لله سبحانه، ثم تتغير هذه الحال بإغواء الشياطين والآباء ونحوهم [٣].

٩ ــ جعلوا الولادة على السلامة « في الأغلب » وهذا مخالف للنصوص صراحة، لأنها تفيد العموم لا الأغلبية ، ففي الآية: ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ وفي الأحاديث (**ما من مولود**) و(**خلقت عبادي حنفاء**) و(**كل مولود يولد على الفطرة**) وغيرها من الأحاديث [٤].

١٠ ــ جعلوا سِنَّ البلوغ حداً للاعتقاد وهذا مخالف أيضاً لصريح الأحاديث فقد نصت الأحاديث على أن الأبوين هما اللذان يهودان وينصران ويمجسان، ومعروف أن سُلطة الأبوين وتأثيرهما تكون في المراحل الأولى من عمر الطفل وقبل البلوغ، وأن الولد بعد البلوغ يبدأ يستقل بذاته، ويختط لنفسه خطاً يتفق مع عقله وقناعاته، فهو بعد البلوغ أقدر على مخالفة الوالدين وعدم التأثر بهما[٥].

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ١/٢٣١٠، وانظر: طرق الحديث ص ٥٢ من هذا البحث.

(٣) انظر: بحث قرآني فطرة الله لفرحات: ١٤.

(٤) انظر: المصدر السابق: ١٥.

(٥) انظر: المصدر السابق: ١٥.

١١ ــ قولهم لو كان الأطفال قد فطروا على شيء من الكفر والإيمان في أولية أمرهم ما انتقلوا عنه أبداً، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون، يرد عليه بما يلي:

أ ــ هذا الكلام صحيح لو تُركوا على طبيعتهم دون تأثير خارجي، ولكن هذا الانتقال حصل بتأثير الأبوين كما نصت الأحاديث (**فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**) فليس الأمر إذن انتقالاً ذاتياً من قِبَل الأطفال، وإنما هو نقل إجباري يتم بتدخل الآباء.

ب ــ لو فرض وجود شخص مخالف لمقتضى الفطرة وقد سلم من المؤثرات ــ من أبوين ونحوهما ــ فإن هذا لا ينفي أنه ولد على الفطرة لأن تحقق مقتضى الفطرة وهو الإسلام لا يكون إلا بالاختيار إذ يمكن أن يكون الموحد مشركاً بإرادته، كما يمكن أن يكون المشرك موحداً بإرادته فالتحول عن مقتضى الفطرة ممكن وواقع [١].

١٢ ــ قولهم باستحالة أن يكون الطفل حين ولادته يعقل كفراً أو إيماناً واستدلالهم على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [٢] فمن لا يعلم شيئاً استحال منه كفر أو إيمان، يرد عليهم بأمرين:

أحدهما: قولهم صحيح فيما يكتسب من العلم والإيمان. وليس صحيحاً فيما يوهب من الله فطرة وخلقة. فهذا الطفل المولود حين يشعر بالجوع ويعطى ثدي أمه فإنه يلتقمه ويغتذي منه وكل هذا بغير تعلم فسبحان الذي أعطى كل

---

(١) انظر: الدرء لابن تيمية ٣٦٢/٨، وبحث قرآني فطرة الله لفرحات: ١٥.

(٢) النحل: ٧٨.

شيء خلقه ثم هدى، وقد ذكر بعض العلماء أنه "لو تُرك طفل رضيع في بيت لا يُكلّم، وله من يقوم بأمره لعرف ربه ونطق بالسريانية [١]، وكونه نطق بفطرته التي فطر عليها لم يستبعد، فنوع الإنسان أشرف من كثير من المخلوقات. قال ابن عباس من جميع المخلوقات قاله في قوله: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [٢] ولا شك أنه أفضل من الجمادات، وقد فطر الله الجمادات على تسبيحه وتحميده وتنزيهه نطقاً لا يفهمه إلا الذي أنطقها به قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [٣]" [٤].

ثانيهما: استدلالهم بالآية الكريمة على هذا القول مردودٌ لما يلي:

أ ـ أن هناك فرقاً بين العلم والمعرفة [٥]، والآية نفت عن المولود العلم

---

(١) السريانية: لغة منسوبة إلى أرض سورستان وهي العراق وإليها ينسب السريانيون وهم النبط ولغتهم يقال لها السريانية وكان حاشية الملك إذا التمسوا حوائجهم وشكوا ظلاماتهم تكلموا بها لأنها أملق الألسنة.

(٢) الاسراء: ٧٠.

(٣) الاسراء: ٤٤.

(٤) مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية: ٣٣٨/٢.

(٥) من الفروق بين العلم والمعرفة –عند من فرق بينهما–:

١– أن المعرفة تتعلق بذات الشيء، و العلم يتعلق بأحواله.

٢– أن المعرفة –في الغالب– تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه، ولهذا كان ضدها الإنكار وضد العلم الجهل.

انظر: مدارج السالكين لابن القيم ٣٥١/٣، ومصادر المعرفة للزنيدي ٣٥–٤٨، والمعرفة في الإسلام للقرني ١٥–١٨.

﴿ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ ولم تنف المعرفة. فلا يحتج بها على أن الطفل لا يولد على المعرفة والإيمان [١].

ب ــ أن الذين قالوا يولد على الإسلام والمعرفة لم يقصدوا أنه يولد يعلم ذلك ويعقله ، وإنما أرادوا أن الفطرة تستوجب الإسلام وتقتضيه، وتستلزم الاقرار بالخالق ومحبته والإخلاص له. وهذه الموجبات والمقتضيات تحصل شيئاً فشيئاً بحسب كمال الفطرة وسلامتها من المعارض.

قال شيخ الإسلام ــ رحمه الله ــ : « كل مولود يولد على الفطرة، ليس المراد به أنه حين ولدته أمه يكون عارفاً بالله موحداً له، بحيث يعقل ذلك. فإن الله يقول: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [٢] ونحن نعلم بالاضطرار أن الطفل ليس عنده معرفة بهذا الأمر، ولكن ولادته على الفطرة تقتضي أن الفطرة تقتضي ذلك، وتستوجبه بحسبها. فكلما حصل فيه قوة العلم والإرادة حصل من معرفتها بربها ومحبتها له ما يناسب ذلك »[٣].

ج ــ أن العلم الحديث أثبت أن الطفل عند ولادته يعرف بعض الأوليات والبدهيات أو كلها، ولكن ما ينقصه هو معرفة الاصطلاحات والأسماء واللغات، بل تعدى ذلك إلى إثبات أن الجنين في بطن أمه قد يتأثر ببعض تصرفاتها السلبية أو الإيجابية [٤].

د ــ أن العموم الوارد في الآية : ﴿ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾.

---

(١) انظر: الأصول الاعتقادية للمعرفة لدسوقي: ٨٨ - ٨٩.

(٢) النحل: ٧٨.

(٣) الدرء لابن تيمية: ٨/٤٦٠ - ٤٦١.

(٤) انظر: مجلة الشريعة، العدد ٢٠، معنى فطرية الإسلام عند ابن تيمية: ٣٢١.

ليس على إطلاقه لا سيما وأن ذلك كثير في القرآن الكريم ومن الأمثلة: قوله تعالى: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ (١).

والإنسان مهما بلغ من العمر عتياً فإنه لا يعود جاهلاً بكل أمور الحياة والدين وإلا نسي الدين والشهادة والصلاة ونحوها.

وكقوله تعالى: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٢).

والمشركون مهما جهلوا من أمور الدين والدنيا، لا يصل بهم الوضع إلى الجهل المطبق كما يفهم من ظاهر الآية (٣).

١٣ ـ احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) وقوله سبحانه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (٥) وقوله: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (٦) وغيرها من الآيات التي تبرهن على أن الجزاء مرهن بالعمل، وكذلك الإجماع على دفع القود والقصاص عن الأطفال، احتجاج مبني على عدم التفرقة بين الإيمان الفطري الذي يولد عليه الناس كافة، وبين الإيمان الكسبي الذي يكون نتيجة استخدام العقل والحواس وإجابة للرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قال الخطابي: « لا عبرة للإيمان الفطري في أحكام

---

(١) النحل: ٧٠.

(٢) المائدة: ١٠٤.

(٣) انظر: المصدر السابق: ٣٢٢.

(٤) التحريم: ٧.

(٥) المدثر: ٣٨.

(٦) الإسراء: ١٥.

الدنـــيا، وإنما يعتبر الإيمان الشرعي المكتسب بالإرادة والفعل ألا ترى أنه يقول: فـــأبواه يهودانـــه وينصرانه فهو مع وجود الإيمان الفطري فيه محكوم له بحكم الأبوين الكافرين»[١]. ثم إن قولنا أن الأطفال يولدون على الفطرة لا يعني أنهم مكلفون، وإنما جعل الله هذه الفطرة معينة لهم على قبول الدين ومعرفة الشريعة ودافعة لهم على قبولها ومحبتها [٢].

١٤ــ قولهم أن الفطرة هي الجبلة والطبع المتهيء لقبول الدين قول فاسد، لأن الحديـــث شـــبه تغيير الفطرة بجدع البهيمة الجمعاء، ومعلوم أن الأبوين لم يغـــيروا قبول الابن ، ولو تغير القبول وزال لم تقم عليه الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب [٣].

---

(١) معالم السنن للخطابي: ٤/٢٩٩.

(٢) انظر: فطرية المعرفة لحمدان ١٨١، وبحث قرآني فطرة الله لفرحات ١٩.

(٣) شفاء العليل لابن القيم: ٤٩٥.

المبحث الثاني

القول بأن الفطرة هي البداءة

فسر أصحاب هذا القول الفطرة بأنها البداءة التي ابتدأ الله الخلق عليها وقالوا بأن الله ابتدأهم للحياة والموت والشقاء والسعادة، وكل ما سبق في علم الله مما يصيرون إليه عند البلوغ أو عند العاقبة، فمن ابتدأ الله خلقه للضلالة والشقاء صيّره إلى ذلك وإن عمل بأعمال أهل السعادة، ومن ابتدأ الله خلقه على السعادة والهدى صيّره إلى ذلك وإن عمل بأعمال أهل الضلالة. وجعلوا من أمارات الشقاوة للطفل أن يولد لأبوين يهوديين أو نصرانيين فيحملانه على اعتقاد دينهما أو يعلّمانه إيّاه أو يموت قبل أن يعقل ويعتقد غير دين والديه فيحكم له بحكمهما [1].

أصحاب هذا القول:

قال بهذا القول جمع من علماء السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ منهم:

۞ عبدالله بن المبارك، فقد حكى عنه أبو عبيد أنه « سئل عن تأول هذا الحديث ـ أي حديث الفطرة ـ فقال: تأويله الحديث الآخر أن النبي ﷺ

---

(١) انظر: التمهيد لابن عبدالبر ٧٨/١٨، وكل مولود يولد على الفطرة للسبكي ١٨، ومعالم السنن للخطابي ٣٠/٤.

سئل عن أطفال المشركين فقال: « الله أعلم بما كانوا عاملين » ، يذهب إلى أنهم يولدون على ما يصيرون إليه من إسلام أو كفر، فمن كان في علم الله أنه يصير مسلماً فإنه يولد على الفطرة، ومن كان في علمه أنه يموت كافراً ولد على ذلك »[١].

وكان الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ في إحدى الروايات [٢] عنه في معنى الفطرة يفسرها بأنها ما خلق الله العباد عليه من الشقاوة والسعادة التي سبقت في الكتاب [٣].

وقد قال المروزي : كان أحمد يذهب إلى هذا القول ثم تركه [٤].

وقال ابن عبدالبر: « ما رسمه مالك في الموطأ وذكره في أبواب القدر فيه من الآثار ما يدل على أن مذهبه في ذلك نحو هذا والله أعلم » [٥].

أدلة وحجج أصحاب هذا القول:

١ ــ احتجوا بأن الفطرة في كلام العرب: البداءة، والفاطر المبدئ والمبتدئ، فكأنه قال: كل مولود يولد على ما ابتدأه عليه من الشقاء والسعادة وغير ذلك مما يصير إليه [٦].

٢ ــ واحتجوا بالأثر المروي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ أنه

---

(١) غريب الحديث لأبي عبيد: ٢٢/٢

(٢) انظر: شفاء العليل لابن القيم ٤٩٩، فقد ذكر أن للإمام أحمد ثلاث روايات في الفطرة.

(٣) انظر: أحكام أهل الملل للخلال ص ١٤-١٨، فقد ذكر روايات عدة تدل على قول أحمد هذا.

(٤) انظر: الدرء لابن تيمية ٣٨٩/٨، والتمهيد لابن عبدالبر ٧٩/١٨.

(٥) التمهيد لابن عبدالبر: ٧٩/١٨.

(٦) انظر: الدرء لابن تيمية ٣٥٩/٨، والتمهيد لابن عبدالبر ٧٨/١٨، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ٥٧٠/٢.

قال: لم أكن أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر، قال أحدهما: أنا فطرتها ـــ أي ابتدأتها ـــ قالوا: فالفطرة البداءة [١].

٣ ـــ ما روي عن علي بن أبي طالب أنه كان يقول في بعض دعائه: «اللهم جبّار القلوب على فطرتها شقيها وسعيدها » [٢].

٤ ـــ استدلوا بما قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [٣].

قال محمد بن كعب القرظي في تفسيرها: من ابتدأ الله خلقه للضلالة، صيره إلى الضلالة، وإن عمل بأعمال أهل الهدى، ومن ابتدأ الله خلقه على الهدى صيره إلى الهدى، وإن عمل بأعمال أهل الضلالة، ابتدأ خلق إبليس على الضلالة وعمل بعمل السعادة مع الملائكة، ثم رده الله إلى ما بتدأ عليه خلقه من الضلالة، قال: وكان من الكافرين، وابتدأ خلق السحرة على الهدى وعملوا بعمل أهل الضلالة، ثم هداهم الله إلى الهدى والسعادة وتوفاهم عليها مسلمين[٤].

وقال سعيد بن جبير في تفسير الآية أيضاً: كما كتب عليكم تكونوا[٥].

وقال مجاهد: كما بدأكم تعودون قال: شقياً وسعيداً، وفي رواية يبعث المسلم مسلماً والكافر كافراً [٦].

---

(١) انظر: التمهيد لابن عبدالبر ١٨/٧٨.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٨/٧٩.

(٣) الأعراف: ٢٩-٣٠.

(٤) انظر: التمهيد لابن عبدالبر ١٨/٨٠، وتفسير ابن جرير ٥/٤٦٦، وتفسير ابن كثير ٣/١٤٢٠.

(٥) انظر: التمهيد لابن عبدالبر ١٨/٨١، وتفسير ابن جرير ٥/٤٦٦، وتفسير ابن كثير ٣/١٤٢٠.

(٦) انظر: التمهيد لابن عبدالبر ١٨/٨١، وتفسير ابن جرير ٥/٤٦٦، وتفسير ابن كثير ٣/١٤٢٠.

وقال أبو العالية : عادوا إلى علمه فيهم فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة [١].

وقال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ في تفسيرها : إن الله سبحانه بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً كما قال ــ جل ثناؤه ــ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [٢] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً [٣].

وقال السدي: كما بدأكم تعودون، كما خلقناكم، فريق مهتدون، وفريق ضال، كذلك تخرجون من بطون أمهاتكم [٤].

٥ ــ استدلوا بحديث عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ حين سئل عن قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [٥]. فقال: سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يُسأل عنها فقال: « **إن الله ــ تبارك وتعالى ــ خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون**» فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال: فقال رسول الله ــ ﷺ ــ: « **إنّ الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل**

---

(١) انظر: التمهيد لابن عبدالبر ٨١/١٨، وتفسير ابن جرير ٤٦٦/٥، تفسير ابن كثير ١٤٢٠/٣.

(٢) سورة التغابن: ٢

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ٤٦٥/٥، وتفسير ابن كثير ١٤٢٠/٣.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ٤٦٦/٥، وتفسير ابن كثير ١٤٢٠/٣.

(٥) الأعراف: ١٧٢.

من أعمال الجنة فيدخله به الجنة. وإذا خلق العبد للنار، استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل ا لنار فيدخله به النار» [١].

٦ ــ استدلوا بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [٢].

٧ ــ احتجوا بحديث عبدالله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ قال: حدّثنا رسول الله ــ ﷺ ــ وهو الصادق المصدوق: (**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله إليه الملك، فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها)**[٣].

٨ ــ واستشهدوا بحديث أُبيّ بن كعب في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ [٤] قال سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول: (**كان**

---

(١) سيأتي تخريجه في ص ٥٠٤ - ٥٠٥.

(٢) التغابن: ٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة ١١٧٤/٣، وفي كتاب الأنبياء ، باب خلق آدم -صلوات الله وسلامه عليه- وذريته ١٢١٢/٣، وفي كتاب القدر ٢٤٣٣/٦، وفي كتاب التوحيد، باب ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ٢٧١٣/٦، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ٢٠٣٦/٤، حديث رقم ٢٦٤٣.

(٤) الكهف: ٨٠.

طبع يوم طبع كافراً) [١] وقالوا: طبعه الله على الأمر، يطبعه طبعاً: فطره[٢].

٩ ــ واحتجوا بقول عبدالله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ: «الشقي من شقي في بطن أمه » [٣].

١٠ ــ استشهدوا بحديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: « دُعي رسول الله ــ ﷺ ــ إلى جنازة صبي من الأنصار فقلت: يا رسول الله طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء و لم يدركه. قال: **أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله خلق للجنة أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم. وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم** » [٤].

١١ــ ومما احتجوا به حديث أبي سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ مرفوعاً :« ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى فمنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت مؤمناً، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت كافراً، ومنهم من يولد مؤمناً ويحيا مؤمناً ويموت كافراً، ومنهم من يولد كافراً ويحيا كافراً ويموت مؤمناً » [٥].

---

(١) أخرجه أبوداود في سننه بلفظه في كتاب السنة، باب في القدر ٤/٢٢٧، والترمذي في سننه بلفظه كتاب التفسير، تفسير سورة الكهف ٥/٣١٢، ومسلم في صحيحه بنحوه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٤/٢٠٥٠، حديث رقم ٢٦٦١.

(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور ٨/٢٣٢، والمصباح المنير لابن المقري ٢/٣٦٩، ومختار الصحاح للرازي ١/١٦٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظه، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه ٤/٢٠٣٧، حديث رقم ٢٦٤٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٤/ ٢٠٥٠، حديث رقم ٢٦٦٢.

(٥) هذا جزء من حديث طويل أصله في الصحيحين في البخاري كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى٢/٥٣٢، ومسلم في كتاب الرقاق باب أكثر أهل الجنة الفقراء ٤/٢٠٩٨، حديث رقم=

١٢ ــ استشهدوا بحديث عبدالله بن عمرو قال: « خرج علينا رسول الله ﷺ وفي يده كتابان فقال: **أتدرون ما هذان الكتابان؟** فقلنا: لا يارسول الله، إلا أن تخبرنا، فقال للذي في يده اليمنى: **هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً**، ثم قال للذي في شماله: **هذا كتاب من رب العالمين فيه أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً** ... الحديث »[1].

مناقشة هذا القول والرد عليه:

قبل الرد والمناقشة لابد من الإشارة إلى أن شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ وجّه نسبة هذا القول إلى الأئمة السابق ذكرهم بأن مرادهم من هذا القول هو الرد على القدرية، نفاة القدر الذين كانوا يحتجون بحديث (**كل مولود يولد على الفطرة**) على أن الكفر والمعاصي ليست بقدر الله بل مما فعله الناس، فاحتج عليهم الأئمة بآخره وهو قوله "والله أعلم بما كانوا عاملين". ومرادهم بهذا أن المولود يولد على الفطرة، ثم يصير إلى ما سبق في علم الله فيه من سعادة وشقاوة، لا أنه حين الولادة لم يكن على فطرة سليمة مقتضية للإيمان، مستلزمة له لولا المعارض، والآثار المنقولة عن السلف لا تدل إلا على

=٢٧٤٢، وقد أخرج هذا الجزء من هذا الحديث: أبوداود الطيالسي في مسنده برقم ٢١٥٦، والحميدي في مسنده برقم ٧٥٢، وأحمد في مسنده رقم ١١١٤٣ و ١١٥٨٧، والترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء ما أخبر النبي -ﷺ- أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة ٤/ ٤٨٣، والطبراني في المعجم الصغير برقم ٣١٢، والحاكم في المستدرك، كتاب الفتن والملاحم ٤/ ٥٥١.

(١) أخرجه أحمد في مسنده برقم ٥٦٣، والترمذي في سننه، كتاب القدر، باب ما جاء أن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار ٤/٤٤٩، والنسائي في الكبرى كتاب التفسير، سورة الشورى ٦/ ٤٥٢.

هذا المعنى [١].

أمّا الردود والمناقشة فهي كالتالي:

١ ــ أن « حقيقة هذا القول أن كل مولود يولد على ما سبق في علم الله أنه صائر إليه، ومعلوم أن جميع المخلوقات بهذه المثابة، فجميع البهائم هي مولودة على ما سبق في علم الله لها، والأشجار مخلوقة على ما سبق في علم الله لها، وحينئذ فيكون كل مخلوق مخلوقاً على الفطرة » [٢]أي أن الفطرة هي العلم[٣].

٢ ــ لو كان هذا القول مراداً لم يكن لقوله: (**فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**) معنى فإنهما فعلا به ما هو الفطرة التي ولد عليها ــ بناءاً على هذا القول ــ وحينئذ فلا فرق بين التهويد والتنصير وبين تلقين الإسلام وتعليمه، وبين تعليم سائر الصنائع، فإن ذلك كله داخل فيما سبق به العلم[٤].

٣ ــ تمثيل الرسول ﷺ للمولود بالبهيمة التي ولدت جمعاء ثم جدعت، يبين أن أبويه غيّرا ما ولد عليه وهو الإسلام، وفي هذا رد لهذا المذهب من وجوه:

أ ــ التمثيل بحال البهيمة الجمعاء دليلٌ على أن الفطرة كاملة، وأي دين باطل نقص للفطرة، فكيف يقال أن المولود يولد على ما يصير إليه من الكفر.

---

(١) انظر: الدرء لابن تيمية ٣٦٢/٨ و ٤١٠ وغيرها.

(٢) المصدر السابق: ٣٨٧/٨ وانظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٤٣/٤، ومجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ٣٣٥/٢.

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر ٢٩٤/٣.

(٤) انظر: الدرء لابن تيمية ٣٨٧/٨، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٤٣/٤، ومجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ٣٣٥/٢.

ب ــ لوكان المولود يولد على ما يصير إليه من الكفر وأبواه كافران، لما كان لأبويه أي تغيير، والحديث أثبت لهما ذلك.

ج ــ لوكان المولود يولد على ما يصير إليه من الشقاوة أو السعادة، لما كان للأبوين أي تغيير، لأن ما سبق به القدر لا يتغير ولا يتبدل، وهذا ينافي ما ثبت لهما من التغيير، فدل على أن هذا القول باطل [١].

٤ ــ الألفاظ التي وردت في بعض طرق الحديث تدل على أن المولود لا يولد على ما يصير إليه من الكفر بل صرحت أنه يولد « على هذه الفطرة » و«على هذه الملّة » وهذا فيه إشارة إلى فطرة معينة وملة معينة تمنع هذا التأويل[٢].

إضافة إلى الأحاديث التي دلت أنه يولد على الحنيفية كقوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ فيما يرويه عن ربه: (**خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**) وكل هذا يدل على أن هذا القول مخالف للصواب[٣].

٥ ــ أنه « لا فرق بين حال الولادة وسائر أحوال الإنسان، فإنه من حين كان جنيناً إلى ما لا نهاية له من أحواله، على ما سبق في علم الله، فتخصيص الولادة بكونها على مقتضى القدر تخصيص بغير مخصص » [٤].

٦ ــ ثبت في الصحيح أنه قبل نفخ الروح فيه يكتب رزقه وأجله وعمله

---

(١) انظر: الدرء لابن تيمية ٣٨٧/٨، ومنهج الاستدلال لعثمان حسن ١٩٨/١، والحجة في بيان المحجة للأصبهاني ٣٨/٢.

(٢) انظر: المعلم بفوائد مسلم للمازري ١٨٠/٣، وتهذيب سنن أبي داود لابن القيم ٤٨٩/١٢.

(٣) انظر: الدرء لابن تيمية ٣٨٧/٨.

(٤) المصدر السابق: ٣٨٨/٨، وانظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب ١٥٨/١.

وشـــقي أو ســـعيد[١]، فلو كان هذا المذهب صحيحاً لقال في الحديث: كل مولود ينفخ فيه الروح على الفطرة. ليشابه هذا المذهب. مع أن النفخ لا يكون إلا بعد الكتابة[٢].

٧ ــ أما احتجاجهم بحديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ فيمكن الإجابة عليه من عدة أوجه:

أ ــ أنه ليس مراد النبي ــ ﷺ ــ في هذا الحديث الحكم بالنار لمن مات صـــغيراً مـــن أطفال المسلمين، وإنما أراد ترك التزكية لمن يموت مسلماً ، ولئلا يشهد بالجنة لأحد، ليكون أحرص على الخير وأخوف من الرب تعالى[٣].

ب ــ أنـــه رد على عائشة ــ رضي الله عنها ــ لكونها حكمت على غيب لم تعلمه، فيكون معنى كلامه ــ عليه الصلاة والسلام ــ: (**أن الله خلق للجـــنة أهـــلاً وللـــنار أهـــلاً فما يدريك أن ذلك الصبي من هؤلاء أو من هؤلاء**)[٤].

ج ــ أن « الإنكـــار من النبي ــ ﷺ ــ على عائشة إنما كان لشهادتها للطفـــل المعين بأنه في الجنة، كالشهادة للمسلم المعين، فإن الطفل تبع لأبويه ، فإذا كان أبواه لا يشهد لهما بالجنة، فكيف يشهد بالطفل التابع لهما، والإجماع إنمـــا هو على أن أطفال المسلمين من حيث الجملة مع آبائهم فيجب الفرق بين المعين والمطلق » [٥].

---

(١) انظر: حديث عبدالله بن مسعود في خلق الجنين في بطن أمه ص ٨٩.

(٢) انظر: الدرء لابن تيمية ٣٨٨/٨.

(٣) انظر: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ٣٤٨/١.

(٤) انظر: أحكام أهل الذمة لابن القيم ٦١٤/٢.

(٥) تهذيـــب سنن أبي داود/ لابن القيم ٤٨٧/١٢، وانظر: أحكام أهل الذمة لابن القيم ٦١٤/٢ و ٦٢٢، وطريق الهجرتين لابن القيم: ٤٠٧.

د ـ أن هذا النهي منه ـ ﷺ ـ لعائشة ـ رضي الله عنها ـ كان قبل أن ينزل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ..﴾ [١] وقبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة [٢]، فنهى عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع، وجرى ـ عليه الصلاة والسلام ـ على الأصل وهو جريان القلم بسعادة كل نسمة أو شقاوتها. ولكن لما علم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنهم في الجنة ، أخبر بذلك في أحاديث كثيرة منها قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**صغارهم دعاميص**[٣] **الجنة** »[٤] [٥].

هـ ـ أن يقال إن اعتراضه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على عائشة ـ رضي الله عنها ـ متوجه إلى « ما ذكرته في آخر كلامها لتعليل كونه عصفوراً من عصافير الجنة قائلة لم يعمل السوء و لم يدركه فأرشدها ـ ﷺ ـ إلى شيء يخالف هذا التعليل ببيان خلق الجنة وخلق النار وأنه قد سبق العلم بما فيه وكأنه قال لها هاهنا مقتضى آخر للثواب والعقاب وهو أن الله خلق للجنة

---

(١) الطور: ٢١.

(٢) ذكر ابن كثير في تفسيره ٣٣١٧/٧ والبغوي في تفسيره ٣٨٩/٧ أثراً عن خديجة –رضي الله عنها– يعارض ما قُرر أعلاه من أن النهي لعائشة كان قبل نزول الآية، إلا أن ذلك الأثر قال عنه الذهبي في الميزان ٦٤٢/٣ "خبر منكر"، وحكم عليه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢١٧/٧-٢١٨ بالانقطاع، وضعفه الألباني في ظلال الجنة ٩٤/١-٩٥.

(٣) دعاميص الجنة أي صغار أهلها.

انظر: شرح النووي على مسلم ١٨٢/١٦، والديباج للسيوطي ٥٤٩/٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه ٢٠٢٩/٤، حديث رقم ٢٦٣٥.

(٥) انظر: شرح النووي على مسلم ٢٠٧/١٦.

خلقـــاً وللنار خلقاً وهم في أصلاب الرجال وليس المقتضى مجرد العمل وذلك إشـــارة إلى حديث: (**سدّدوا وقاربوا واعلموا أنّه لن يدخل أحد الجنة بعمله**) قيل: ولا أنت يا رسول الله، قال: (**ولا أنا: إلا أن يتغمدني الله برحمته**)[1] فهذا الحديـــث بمجـــرده يسوّغ الاعتراض على من جعل السعادة والشقاوة منوطة بـــالعمل فقط، وعائشة ـــ رضي الله عنها ـــ قد فعلت ما يقتضيه كلامها من ســـعادة هـــذا الصبي معللة بعدم عمل السوء، مع أنه يمكن أن تكون العلة في سعادته هي ما جرى له من اللطف بتوفي الله له في تلك السن فإن ذلك بمجرده لطـــف مـــع قطـــع النظر عن العمل، فالحاصل أنه ـــ ﷺ ـــ أبان مقتضاً آخر للســـعادة وهو أن الله لطف به وتغمده برحمته بقبضه في ذلك الوقت ولو كان العمل هو سبب الشقاوة والسعادة كما قالت عائشة لماتم ما تلاه عليها ـــ ﷺ ـــ من أن الله خلق للجنة خلقاً وللنار خلقاً وهم في أصلاب آبائهم »[2].

٨ ـــ استشهادهم بحديث عبدالله بن عمرو ـــ رضي الله عنهما ـــ الذي يـــتحدث عـــن الكتابين اللذين يضم أحدهما أسماء أهل الجنة والآخر أسماء أهل النار، استشهاد في غير مكانه، فالحديث يدل على أن من يدخل الجنة معلوم لله تعـــالى، وكذلك من يدخل النار، وليس فيه أي إشارة إلى بدء الخلق هل كان عـــلى كفر أو إيمان، وهذا هو موضع النـــزاع معهم وليس علم الله بمن يدخل الجنة والنار[3].

---

(١) لم أقـــف عليه بهذا اللفظ وقد أخرجه البخاري في صحيحه بنحوه، كتاب المرضى، باب نهي تمني المـــريض المـــوت ٥/٢١٤٧، وفي كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل ٥/٢٣٧٣، ومسلم في صحيحه بنحوه، كتاب صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ٤/٢١٦٩ - ٢١٧١، الأحاديث رقم: ٢٨١٦-٢٨١٨.

(٢) أطفال المسلمين في الجنة للشوكاني ٣٢-٣٤.

(٣) انظر: بحث قرآني فطرة الله، لفرحات ص ١٠.

٩ ــ تفسير الفطرة بالبداءة مصير من القائلين به إلى معنى الفطرة لغة، وإهمال لمعناها الشرعي، مع أن المعنى الشرعي مقدم على المعنى اللغوي باتفاق أهل الشرع، ولا ينافي ذلك ورود الفطرة في الكتاب أو السنة في بعض المواضع مراداً بها المعنى اللغوي. كقوله تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] أي خالقهما ومبتديهما، وكقوله تعالى : ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾[2] إذ لا نزاع في أن المعنى اللغوي هو هذا ، ولكن النزاع في المعنى الشرعي للفطرة[3]. وقد سبق هذا الرد أيضاً على أصحاب القول الأول.

١٠ــ استدلالهم بأقوال بعض أهل العلم في تفسير قوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ يجاب عنه بما يلي:

أ ــ أن الآية مختلف في تفسيرها بين أهل التأويل وما ذكرتموه هو القول المرجوح ، أما القول الراجح ــ الذي عليه أكثر أهل العلم ــ فهو أن معناها كما خلقكم و لم تكونوا شيئاً، تعودون بعد الفناء، وممن قال به من أهل العلم[4]:

الحسن البصري : "كما بدأكم تعودون"، قال: كما بدأكم و لم تكونوا شيئاً فأحياكم، كذلك يميتكم، ثم يحييكم يوم القيامة ــ وفي رواية أخرى ــ كما بدأكم في الدنيا، كذلك تعودون يوم القيامة أحياء.

وقال قتادة "كما بدأكم تعودون" أي: بدأ خلقهم و لم يكونوا شيئاً، ثم

---

(١) فاطر: ١.

(٢) يس: ٢٢.

(٣) فتح القدير للشوكاني: ٢٢٤/٤، وانظر: فتح البيان في مقاصد القرآن للقنوجي ٢٤٧/١٠.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ٤٦٥/٥ - ٤٦٨، وتفسير ابن كثير ١٤١٩/٣ - ١٤٢١.

ذهبوا، ثم يعيدهم.

وقال ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ "كما بدأكم تعودون" أي : كما خلقناكم أول مرة، كذلك تعودون.

وقال مجاهد "كما بدأكم تعودون" أي: يحييكم بعد موتكم.

وقال ابن زيد "كما بدأكم تعودون" أي: كما خلقهم أولاً، كذلك يعيدهم آخراً.

واختار هذا القول ورجحه ابن جرير ــ رحمه الله ــ وقال: إن الله تعالى أمر نبيه ــ ﷺ ــ أن يُعلم بما في هذه الآية قوماً مشركين أهل جاهلية، لا يؤمنون بالمعاد ولا يصدّقون بالقيامة، ومن كان هذا حاله لا يدعى إلى الإقرار بالصفة التي عليها ينشر من نشر، وإنما يدعى إلى الإقرار بالبعث أولاً ثم يُعرَّف بعد ذلك كيف شرائط البعث[1]. وأيّد ابن جرير قوله هذا بما رواه ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ عن النبي ــ ﷺ ــ أنه قال: يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[2][3]. واختار هذا القول أيضاً شيخ الإسلام ابن

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير ٥/٤٦٧.

(٢) الأنبياء: ١٠٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله الله تعالى: {واتخذ الله إبراهيم خليلا} ٣/١٢٢٢، وباب واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها ٣/١٢٧١ ، وفي كتاب التفسير سورة المائدة، باب وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ٤/١٦٩١، وفي سورة الأنبياء باب كما بدأنا أول خلق نعيده ٤/١٧٦٦، وفي كتاب الرقاق، باب كيف الحشر ٥/٢٣٩١، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ٤/ ٢١٩٤، حديث رقم ٢٨٦٠.

تيمية[١] وابن القيم[٢] وغيرهم.

ب ــ أن من منهج القرآن وعادته الاستدلال على المعاد بالبداءة ومن الآيات الشاهدة لهذا: قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[٣].

وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[٤].

وقوله ــ جل وعلا ــ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ﴾[٥].

وعلى هذا فمعنى قوله: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ معنى نظائرها من الآيات السابقة وغيرها من الآيات التي يحتج الله سبحانه فيها على النشأة الثانية بالأولى[٦].

ج ــ أن هذه الآية خاطبت المشركين وبينت لهم أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ « هدى فريقاً وأضل فريقاً ، فالأمر كله له: بدؤهم وإعادتهم وهداية من هدى منهم وإضلال من أضل منهم وليس في شركائهم من يفعل شيئاً من ذلك »[٧].

---

(١) انظر: الدرء لابن تيمية ٨/٤١٣.

(٢) انظر: شفاء العليل لابن القيم: ٥٠٠ - ٥٠١، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ٢/٥٧٤ - ٥٧٥.

(٣) الروم: ١١.

(٤) يونس: ٣٤.

(٥) الحج: ٥.

(٦) انظر: شفاء العليل لابن القيم: ٥٠٠.

(٧) أحكام أهل الذمة لابن القيم: ٢/٥٧٥.

د ــ أن العَوْد يقتضي مفارقة العائد لما يعود إليه، وفي مذهبهم هذا الذي فسروا به الآية لا يتصور مفارقة ثم عود [١].

هـ ــ أن « لفظ بدأ الله الخلق » : يراد به ابتداء تكوينهم، وهو ظاهر القرآن. وقد يراد به ابتداء أسباب خلقهم وعلامات ذلك ، كما في قول السائل للنبي ــ ﷺ ــ: « ما كان أول أمرك: قال: **دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي: رأت أنني حين ولدتني كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام** [٢] » [٣].

و ــ قد يقول قائل: كيف يرتبط تفسيركم هذا لقوله: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ بقوله في الآية التي تليها : ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾؟.

وقد أجاب عن هذا ابن القيم ــ رحمه الله ــ فقال : « هذا الذي أوجب لأصحاب ذلك القول ما تأولوا به الآية. ومن تأمل الآية علم أن [هذا] القول أولى بها. ووجه الارتباط أن الآية تضمنت قواعد الدين علماً وعملاً واعتقاداً. فأمر سبحانه فيها بالقسط الذي هو حقيقة شرعه ودينه. وهو يتضمن التوحيد فإنه أعدل العدل. العدل في معاملة الخلق، والعدل في العبادة، وهو الاقتصاد في السنة.

---

(١) انظر: الفطرة للجعبري: ٧٠.

(٢) لم أقف عليه بهذ اللفظ وقد أخرجه أبوداود الطيالسي في مسنده برقم ١١٤٠، وأحمد في مسنده بنحوه، الرقم (٢٢٣١٥) [طبعة قرطبة]، والطبراني في الكبير برقم ٧٧٢٩، وا لحاكم في المستدرك، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء، باب ذكر أخبار سيد المرسلين ٦٥٦/٢ وقال صحيح الإسناد.

(٣) الدرء لابن تيمية: ٤١٣/٨.

ويتضمن الأمر بالإقبال على الله وإقامة عبوديته في بيوته. ويتضمن الإخلاص له، وهو عبوديته وحده لا شريك له، فهذا ما فيها من العمل. ثم أخبر بمبدئهم ومعادهم فتضمن ذلك حدوث الخلق وإعادته، فذلك الإيمان بالمبدأ والمعاد. ثم أخبر عن القدر الذي هو نظام التوحيد فقال: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾.

فتضمنت الآية الإيمان بالقدر والشرع ، والمبدأ والمعاد، والأمر بالعدل والإخلاص. ثم ختم الآية بذكر حال من لم يصدّق هذا الخبر ولم يطع هذا الأمر بأنه انقاد للشيطان دون ربّه، وأنه على ضلال وهو يحسب أنه على هدى، والله أعلم »[1].

١١ ــ احتجاجهم بحديث أبي سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ مردود لأمرين:

أ ــ أن الحديث ضعيف عند كثير من أهل العلم[2].

ب ــ أنه يحتمل قوله يولد مؤمناً: يولد ليكون مؤمناً ، ويولد ليكون كافراً على سابق علم الله فيه ولو كان بين أبوين مؤمنين والعكس، وإلى هذا

---

(١) شفاء العليل لابن القيم: ٥٠١.

(٢) الحديث وإن كان أصله في الصحيحين كما سبق في تخريجه ص ٩٠-٩١، إلا أن تفصيل ألفاظ تلك الخطبة التي خطبها الرسول -ﷺ- لم ترد في الصحيحين ، والذين أوردوها من أهل العلم مدار أسانيدهم على "علي بن زيد بن جدعان" وجمهور أهل الحديث على تضعيفه وذلك لسوء حفظه وتخليطه في آخر عمره ولما فيه من التشيع. ولمعرفة تفصيل أقوال أهل العلم فيه انظر على سبيل المثال: " الطبقات لابن سعد ٢٥٢/٧، ومعرفة الثقات للعجلي ١٥٤/٢، وضعفاء العقيلي ٢٩٩/٣، والجرح والتعديل ١٨٦/٦، والمجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين ١٠٣/٢، والكامل في ضعفاء الرجال ١٩٥/٥، وتهذيب الكمال ٤٣٤/٢٠، وتذكرة الحفاظ ١٤٠/١، والكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة ٤٠/٢، وتهذيب التهذيب ٢٨٣/٧، وتقريب التهذيب ٤٠١/١ وغيرها.

يرجع غلام الخضر ففي علم الله أنه لو عاش يصير كافراً بإضلال غيره له أو بآفة من الآفات البشرية [١].

١٢ــ أما استدلالهم بحديث عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ في الميثاق فيجاب عنه بما يلي:

أ ــ الحديث دليل على علم الله السابق وقدره النافذ والآيات والأحاديث الشاهدة على هذا كثيرة جداً، وليس هذا دليلاً على أن المولود يولد على ما يصير إليه.

ب ــ في بعض ألفاظ وطرق الحديث ما يُرد به على هذا المذهب حيث دلت على إشهاد الناس وإقرارهم بخالقهم، فكيف يقال أنهم يولودون على ما يصيرون إليه من الكفر [٢].

ج ــ « ليس في قوله في الحديث: خلقت هؤلاء للجنة ، وخلقت هؤلاء للنار، أكثر من مراعاة ما يختم به لهم لا أنهم في حين طفولتهم ممن يستحق جنة أو ناراً أو يعقل كفراً أو إيماناً » [٣].

١٣ــ استدلالهم بحديث الغلام الذي قتله الخضر مردود لأمور:

أ ــ أن معنى الحديث أن هذا الغلام قُدّر عليه وقضي في أم الكتاب أنه يكفر، فهي حالٌ مقدّرة كقوله تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا ﴾[٥] ونظائر ذلك، وليس

---

(١) انظر: التمهيد لابن عبدالبر ٨٣/١٨، وروح المعاني للألوسي ٤٠/٢١.

(٢) سيأتي تخريج الحديث وطرقه وكلام العلماء عليه بالتفصيل في الباب الثالث، ص ٥٠٤.

(٣) التمهيد لابن عبدالبر: ٨٣/١٨.

(٤) الزمر: ٧٢.

(٥) الصافات: ١١٢.

المـــراد أن كفره كان موجوداً قبل أن يولد ، ولا أنه موجودٌ معه بالفعل حال ولادتـــه حتى طبع ـــ كقولهم: ولد ملكاً وولد عالماً وولد جبّاراً ـــ فإنه ولد على الفطرة السليمة التي قد تتأثر فيتغير ويكفر [١].

قـــال شيخ الإسلام ـــ رحمه الله ـــ: « والطبع الكتاب، أي كتب كافراً كما قال ـــ ﷺ ـــ : (**فيكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد**) وليس إذا كان الله قد كتبه كافراً، يقتضي أنه حين الولادة كافر، بل يقتضي أنه لابد أن يكفر، وذلك الكفر هو التغيير، كما أن البهيمة التي ولدت جمعاء. وقد سبق في عـــلمه أنها تجدع، كُتب أنها مجدوعة بجدع يحدث لها بعد الولادة، لا يجب أن تكون عند الولادة مجدوعة » [٢].

ب ـــ أن ظـــنهم أن الطبع على قلب الغلام. المذكور في الحديث ـــ هو الطـــبع عـــلى قلـــوب الكفار ـــ المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ﴾ [٣] ـــ غلـــطٌ ظاهـــر، فإن ذلك لا يقـــال فيه طبع يوم طبع، لأن الطبع على قلبه إنما يوجد بعد كفره [٤].

قال شيخ الإسلام ـــ رحمه الله ـــ:«ولفظ الطبع لما كان يستعمله كثير من الناس في الطبيعة التي هي الجبلة والخليقة ظنّ الظان أن هذا مراد الحديث »[٥].

ج ـــ لو كان المراد بالفطرة ما ذهبتم إليه من أنه ما يصير إليه من الشقاوة ما استشكل موسى ـــ عليه السلام ـــ على الخضر قتل الغلام: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا

---

(١) انظر: شفاء العليل لابن القيم: ٤٨٨، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ٢/٥٣١.

(٢) الدرء لابن تيمية: ٨/٣٨٩.

(٣) التوبة: ٩٣.

(٤) انظر: شفاء العليل لابن القيم: ٤٨٨، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ٢/٥٣١.

(٥) الدرء لابن تيمية: ٨/٤٢٧.

زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾[١]،لأن هذا الاستشكال منه ــ عليه السلام ــ يدل على أن المولود يولد على الإسلام والدين.

ثم إن إجابة الخضر: ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴾[٢]، دليل على أنه لم يحكم بكفره من حين ولادته، بل حكم بما سيصير إليه وذلك مما علمه الله إياه[٣].

١٤ــ واستدلالهم بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾[٤]. غاية ما يدل عليه « أنه خلق الكافر كافراً والمؤمن مؤمناً، وهذا متفق عليه بين الصحابة وجميع أهل السنة، وليس فيه ما ينفي كونهم مخلوقين على فطرة الإسلام، خلق لهم أسباباً أخرجت من أخرجته منهم عنها»[٥].

١٥ ــ احتجاجهم بالأحاديث الدالة على أن العبد يكتب شقياً أو سعيداً وهو في بطن أمه حق لا يخالف فيه أحد من أهل السنة بل قد اتفقت كلمتهم وكلمة الصحابة قبلهم على ذلك. لكن هذا ليس فيه ما ينفي ماثبت في الأحاديث الأخرى أنهم يفطرون على الإسلام والحنيفية ثم ينحرفون بعد ذلك[٦].

١٦ ــ ومما يُرد به على أصحاب هذا القول الأحاديث التي وردت عن

---

(١) الكهف: ٧٤.

(٢) الكهف: ٨٠.

(٣) انظر: منهج الخطابي للحماد: ١/١٨٩ - ١٩٠.

(٤) التغابن: ٢.

(٥) أحكام أهل الذمة لابن القيم: ٢/٥٧٤.

(٦) انظر: المصدر السابق ٢/٥٧٥.

النبي ـ ﷺ ـ في النهي عن قتل أولاد المشركين ومنها: حديث الأسود بن سريع ـ رضي الله عنه ـ قال: بعث رسول الله ـ ﷺ ـ سرية يوم خيبر فقاتلوا المشركين فافضى بهم القتل إلى الذرية، فلما جاؤا قال النبي ـ ﷺ ـ: (**ما حملكم على قتل الذرية؟** فقالوا: يا رسول الله إنما كانوا أولاد المشركين. قال: **وهل خياركم إلا أولاد المشركين؟ والذي نفس محمد بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها**).

« فخطبته لهم بهذا الحديث عقب نهيه لهم عن قتل أولاد المشركين، وقوله لهم: أو ليس خياركم أولاد المشركين؟ يبين أنه أراد أ نهم ولدوا غير كفار، ثم الكفر طرأ بعد ذلك، ولو كان أراد أن المولود حين يولد يكون إما كافراً وإما مسلماً على ما سبق له القدر لم يكن فيما ذكره حجة على ما قصده ـ ﷺ ـ من نهيه لهم عن قتل أولاد المشركين » [(١)].

١٧ ـ احتجاجهم بحديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: (**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه** ... الحديث) يجاب عنه بوجوه:

أ ـ ليس بين حديث الفطرة وهذا الحديث تعارض، فهما يدلان معاً على « أن الإنسان مفطور على الإسلام بالقوة لكن لابد من تعلمه بالفعل، فمن قدّر الله كونه من أهل السعادة فيهيء الله له من يعلمه سبيل الهدى فصار مهيئاً بالفعل، ومن خذله وأشقاه ـ عياذاً بالله ـ سبب له من يغير فطرته ويثني عزيمته كما جاء في تحويل الأبوين لابنهما إلى اليهودية أو النصرانية أو المجوسية»[(٢)].

---

(١) الدرء لابن تيمية: ٨/٤٦٤.

(٢) مجلة البحوث الإسلامية: ٤٠/١٠٦، وانظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب ٢/٣٩.

ب ـــ حديث ابن مسعود ـــ رضي الله عنه ـــ مسوق لبيان أن الاعتبار والقـــبول متعلق بالخاتمة[١] وهذا لا ينافي أن يولد المولود على فطرة الإسلام ثم يعود لما قدر الله عليه من خاتمة.

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر ١١/٤٩٥ - ٤٩٦.

المبحث الثالث

القول بأن الفطرة هي مافطر الله عليه بني آدم من الإنكار والمعرفة والكفر والإيمان

ذهب أصحاب هذا القول إلى أن معنى قوله ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ: **(كل مولود يولد على الفطرة)** أن الله فطرهم على الإنكار والمعرفة، وعلى الكفر والإيمان، فأخذ من ذرية آدم الميثاق حين خلقهم فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قالوا جميعاً: « بلى » فأما أهل السعادة فقالوا: « بلى » على معرفة له طوعاً من قلوبهم، وأما أهل الشقاء فقالوا: « بلى» كرهاً لا طوعاً [١].

أصحاب هذا القول:

وممن قال بهذا القول من أهل العلم: إسحاق بن راهويه ـــ رحمه الله ـــ قال المروزي: « وسمعت إسحاق بن إبراهيم ـــ يعني ابن راهويه ـــ يذهب إلى هذا المعنى » [٢]. وصحح هذا القول وذهب إليه محمد بن أحمد الأزهري، في كتابه تهذيب اللغة حيث قال: « والذي قاله إسحاق هو القول الصحيح الذي

---

(١) انظر: التمهيد لابن عبدالبر: ٨٣/١٨، وتهذيب اللغة للأزهري ٣٢٨/١٣.

(٢) انظر: التمهيد لابن عبدالبر: ٨٣/١٨، وتهذيب اللغة للأزهري ٣٢٨/١٣.

دلّ عليه الكتاب ثم السنة » [١] وقال أيضاً: « والقول ما قال إسحاق بن إبراهيم في تفسير الآية ومعنى الحديث والله أعلم » [٢].

وقال به ابن حبان ـــ رحمه الله ـــ في صحيحه [٣].

أدلة أصحاب هذا القول وحججهم:

استدل أصحاب هذا القول بعدة أدلة وحجج منها ما يلي:

١ـــ قوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [٤] قال ابن عباس: حين أخذ الميثاق [٥].

٢ـــ قوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [٦].

٣ ـــ قول أبي هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ في آخر الحديث: إقرؤا إن شئتم: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [٧]. قال إسحاق: يقول لا تبديل لخلقته التي جبل عليها ولد آدم كلهم، يعني من الكفر والإيمان والمعرفة والإنكار [٨].

---

(١) تهذيب اللغة للأزهري: ١٣/٣٢٩.

(٢) المصدر السابق: ١٣/٣٣٠.

(٣) انظر: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ١/٣٣٧ رقم ١٢٩.

(٤) آل عمران: ٨٣.

(٥) انظر: تفسير ابن جرير ٣/٣٣٥.

(٦) الأعراف: ٢٩-٣٠.

(٧) الروم: ٣٠.

(٨) انظر: التمهيد لابن عبدالبر ١٨/٨٤.

٤ ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [١]. قال إسحاق: أجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد، استنطقهم وأشهدهم على أنفسهم: « ألست بربكم » قالوا: « بلى » فقال: انظروا ألا تقولوا: « إنّا كنّا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم...» [٢].

٥ــ حديث أبي بن كعب ــ رضي الله عنه ــ في قصة الغلام الذي قتله الخضر، وفيه أن النبي ــ ﷺ ــ قال: (**الغلام الذي قتله الخضر، طبعه الله يوم طبعه كافراً**). قال إسحاق: وكان الظاهر ما قال موسى ــ عليه السلام ــ «أقتلت نفساً زكية » فأعلم الله الخضر ما كان الغلام عليه في الفطرة التي فطره عليها، لأنه كان قد طبع يوم طبع كافراً [٣].

٦ ــ قراءة عبدالله بن عباس ــ رضي الله عنهما ــ : « وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين » [٤]. [٥]

٧ ــ قوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ : (**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**). قال إسحاق: لو ترك النبي ــ ﷺ ــ الناس ولم يبيّن لهم حكم الأطفال، لم يعرفوا المؤمنين منهم من

---

(١) الأعراف: ١٧٢.

(٢) انظر: المصدر السابق ٨٤/١٨.

(٣) المصدر السابق: ٨٦/١٨.

(٤) قراءة ابن عباس أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى ١٢٤٦/٣، وفي كتاب التفسير سورة الكهف ١٧٥٢/٤ - ١٧٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر -عليه السلام- ١٨٤٧/٤، حديث رقم ٢٣٨٠.

(٥) انظر: التمهيد لابن عبدالبر ٨٧/١٨، والدرء لابن تيمية ٤١٥/٨.

الكافـــرين، لأنهم لا يدرون ما جبل كل واحد منهم عليه حين أخرج من ظهر آدم، فـــبين لهـــم النبي ـــ ﷺ ـــ حكم الطفل في الدنيا. فقال: (**أبواه يهودانه وينصـــرانه ويمجســـانه**). يقول أنتم لا تعرفون ما طبع عليه في الفطرة الأولى، ولكـــن حكـــم الطفل في الدنيا حكم أبويه، فاعرفوا ذلك بالأبوين، فمن كان صـــغيراً بين أبوين كافرين ألحق بحكمهما، ومن كان صغيراً بين أبوين مسلمين الحق بحكمهما، وأما إيمان ذلك وكفره مما يصير إليه، فعلم ذلك إلى الله، وبعلم ذلك فضل الخضر موسى ـــ عليه السلام ـــ إذ أطلعه الله عليه في ذلك الغلام، وخصـــه بذلك العلم، ولقد سئل ابن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ عن ولدان المسلمين والمشركين فقال: حسبك ما اختصم فيه موسى والخضر[١]. [٢]

٨ ـــ احـــتجوا بحديث عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ حين مات صبي من الأنصـــار بـــين أبوين مسلمين فقالت: طوبى له عصفور من عصافير الجنة. فردّ علـــيها رســـول الله ـــ ﷺ ـــ فقال: (**مه يا عائشة وما يدريك، إنّ الله خلق الجـــنّة وخلـــق لها أهلها، وخلق النار، وخلق لها أهلها**). قال إسحاق: فهذا الأصل الذي يعتمد عليه أهل العلم[٣].

٩ـــ احـــتجوا بأطفال قوم نوح ـــ عليه السلام ـــ الذين دعا على آبائهم وعليهم بالغرق ، وقالوا: إنما استجاز الدعاء عليهم بذلك وهم أطفال، لأن الله ـــ عـــز وجل ـــ أعلمه أنهم لا يؤمنون، حيث قال له: ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن

---

(١) هذا الأثر أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، سورة الكهف، ٢/٤٠١.

(٢) انظـــر: التمهيد لابن عبدالبر: ١٨/ ٨٧، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ٢/٥٧٧، وشفاء العليل لابن القيم ٥٠٢.

(٣) انظر: التمهيد لابن عبدالبر: ١٨/٨٨، و أحكام أهل الذمة لابن القيم ٢/٥٧٧ - ٥٧٨.

قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [١]. فأعلمه أنهم فطروا على الكفر [٢].

١٠ ــ احتجوا بما روي عن بعض أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ في قول الله ــ عز وجل ــ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قالوا: لما أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يهبطه من السماء، مسح صفحة ظهره اليمنى، فأخرج منها ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ كهيئة الذر، فقال لهم: ادخلوا الجنة برحمتي، ومسح صفحة ظهره اليسرى، فأخرج منها ذرية سوداء كهيئة الذر فقال : ادخلوا النار ولا أبالي، فذلك قوله: أصحاب اليمين والشمال ، ثم أخذ منهم الميثاق فقال: « ألست بربكم؟ قالوا: بلى » فأعطاه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجه التقية، فقال هو والملائكة « شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنَّا كنَّا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل» قالوا: فليس أحدٌ من ولد آدم إلا وهو يعرف الله أنه ربّه، وذلك قوله: ــ عز وجل ــ ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ وذلك قوله ــ سبحانه ــ : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [٣] يعني يوم أخذ الميثاق [٤].

مناقشة هذا القول والرد عليه:

١ــ « إن أرادوا بهذا القول أن الله ــ سبحانه ــ سبق في علمه وقدره بأنهم سيؤمنون ويكفرون ويعرفون وينكرون، وأن ذلك بمشيئة الله وقدرته وخلقه، فهذا حق يردّه القدرية، فغلاتهم ينكرون العلم، وجمهورهم ينكرون

---

(١) هود: ٣٦.

(٢) انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٣/٣٢٩.

(٣) الأنعام: ١٤٩.

(٤) ذكر هذا الأثر: ابن جرير الطبري في تفسيره ٦/١١٥، وابن عبدالبر في التمهيد ١٨/٨٥-٨٦.

عموم خلقه ومشيئته وقدرته » [١].

٢ ــ إن أرادوا أن هــذه المعرفة والنكرة كانت موجودة حين أخذ الميثاق فهــذا يتضمن أن المعرفة والإيمان كان موجوداً فيهم، كما قال ذلك كثير من الســلف، وهــو الذي حكى إسحاق الإجماع عليه، وهذا وإن كان حقاً فهو توكــيد لكونهم ولدوا على تلك المعرفة والإقرار، وهذا لا يخالف ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة ، من أنهم يولدون على « الملّة » وأن الله خلقهم حنفاء، بل هو مؤيد لها.

وأمــا قولهم « بأنهم انقسموا إلى طائع وكاره » ، فهذا لم ينقل عن أحد من السلف، إلا عن السدي في تفسيره [٢]، وهو خلاف ما عليه عامة الصحابة والــتابعين، فقد قال عامتهم أجابوا كلهم طائعين غير مكرهين، فعن أُبيّ قال: أقــروا له يومــئذ بالطاعة، وكذلك غيره من التابعين، وقال غيره: أجابوه على معــنى الوحدانــية أنه ربهم لا يُسأل كافر ولا غيره إلا قال: ربي الله، فعن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ مسح الله ــ عز وجل ــ صلب آدم ــ عليه السلام ــ فأخرج من صــلبه ما يكون من ذريته إلى يوم القيامة، وأخذ ميثاقهم أنه ربهم فأعطوه ذلك فلا يسأل أحد كافر ولا غيره، من ربك إلا قال: الله ربي [٣].

٣ ــ اســتدلالهم بالأثر الذي رواه السدي عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ في تفســير قولــه تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾... الآية. يرد عليه بما يلي:

---

(١) الدرء لابن تيمية: ٤٢١/٨.

(٢) انظر: الدرء لابن تيمية ٤٢١/٨ - ٤٢٣، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ٥٧٨/٢.

(٣) انظر: الرد على الجهمية لابن منده ص ٦٦-٦٧، وتفسير ابن جرير الطبري ١١٦/٦.

أ ـــ على فرض صحته ففيه أن كل ولد آدم يعرف الله، فإذا كانوا ولدوا عـــلى هذه الفطرة فقد ولدوا على المعرفة، ولكن فيه أن بعضهم أقر كارهاً مع المعـــرفة بمنـــزلة الذي يعرف الحق لغيره ولا يقربه إلا مكرهاً وهذا لا يقدح في كون المعرفة فطرية [١].

ب ـــ هذا الأثر لا يوثق به لأمرين:

أحدهمـــا : معارضته لسائر الآثار التي تسوي بين جميع الناس في الإقرار ـــ وقد سبق بيان هذا في الرد السابق ـــ.

الثاني: أن في تفسير السدي أشياء قد عرف بطلان بعضها ـــ وهو ثقة في نفسه ـــ وأحسن أحوال هذا الأثر وأمثاله أن يكون كالمراسيل إن كان مأخوذاً عـــن النبي ـــﷺـــ، فكيف إذا كان مأخوذاً عن أهل الكتاب، الذين يكذبون كثيراً [٢].

ج ـــ قوله: « إنهم أقروا على وجه التقية » «كلام باطل قطعاً، فإن التقية أن يقول العبد خلاف ما يعتقده، لاتقاء مكروه يقع به لو لم يتكلم بالتقية، وهم لم يكونـــوا يعتقدون أن لهم ربّاً غير الله حتى يقولوا تقيّة: أنت ربنا، بل هم في حـــال كفرهم الحقيقي وعنادهم وتكذيبهم للرسل، مقرون بأن الله ربهم، وقد عـــرض ما غيّر تلك الفطرة التي فطروا عليها، فكانوا مع ذلك مقرين بأنه ربهم طوعـــاً واختياراً، لا تقية، فكيف يقولون ذلك تقية في الحال التي لم يعرض لهم فـــيها شـــيء من أسباب الشرك ولا كان هناك شياطين تضلهم، فهذا مما يعلم

---

(١) انظر: الدرء لابن تيمية ٤٢١/٨ - ٤٢٢.

(٢) انظر: المصدر السابق ٤٢٣/٨، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ٥٧٩/٢ - ٥٨٠.

بطلان تفسير الآية به قطعاً، بلا توقف »[١].

د ــ قولــــه: « فقال هو والملائكة: شهدنا » « هذا خطاب قطعاً، بل هــو مــن تمــام كلامهم وأنهم قالوا: بلى شهدنا، أي أقررنا كما قال الرسل ــ علــيهم الصلاة والسلام ــ لما أخذ عليهم الميثاق في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ﴾[٢]. وكأن قائل هذا القول ظن أن قوله: « أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين » تعليل لقوله : «شهدنا » وذلك لا يلتــئم علّة لــه. فقال: قوله: « شهدنا يقوله الله والملائكة، أي شهدنا عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة: « إنّا كنّا عن هذا غافلين » ولكن ذلك تعليل لأخذهم وإشــهادهم على أنفسهم، أي أشهدهم على أنفسهم فشهدوا لئلا يقولوا يوم القيامة ذلك، ليس معنى « شهدنا » لئلا يقولوا ، ولكن أشهدهم لئلا يقولوا، يوضــحه أن شــهادتهم على أنفسهم هي المانعة من قولهم ذلك يوم القيامة، لا شــهادة الله وملائكته عليهم، ولهذا يجحد العبد يوم القيامة شركه وفجوره مع شــهادة الله وملائكته عليه بذلك، فيقول: لا أجيز على نفسي إلا شهادة مني، ولا يقيم الله الحجة عليه، فشهادته حين تشهد عليه نفسه وتشهد عليه جوارحه، قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[٣]. وهــذا غايــة العدل، وإزالة شبه الخصوم من جميع الوجــوه، وكذلــك قولــه: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ

---

(١) أحكام أهل الذمة لابن القيم: ٢/٥٨٠-٥٨١.

(٢) آل عمران: ٨١.

(٣) يس: ٦٥

أَجْمَعِينَ﴾ [١] إنّما معناه: لو شاء لوفقكم لتصديق رسله واتباع ما جاؤوا به كما قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [٢]. وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [٣] وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [٤] نعم، ولو شاء في تقديره السابق لقدّر إيمانهم جميعاً فجاء الأمر كما قدّره » [٥].

٤ ــ استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [٦]. مردود لأمرين:

أ ــ أن المراد بالإسلام في الآية الإسلام الموجود بعد خلقهم. وعلى هذا جمهور المفسرين مع اختلاف تعبيراتهم عن ذلك، فالمؤمن والكافر مستسلمون لله -عز وجل- أي تحت مشيئته وقدرته الكونية، التي لا تُخالف ولا تمانع، فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً [٧].

ب ــ مما يدل على أن الإسلام في الآية ليس المراد به أنهم أسلموا طوعاً وكرهاً حين العهد الأول، أن ذلك الإقرار الأول جعله الله حجة عليهم عند من يثبته، ولو كان فيهم كارهٌ لقال: لم أقل ذلك طوعاً بل كرهاً، فلا تقوم عليه

---

(١) الأنعام: ١٤٩.

(٢) السجدة: ١٣.

(٣) يونس: ٩٩.

(٤) الأنعام: ٣٥.

(٥) أحكام أهل الذمة لابن القيم: ٢/٥٨١ - ٥٨٢.

(٦) آل عمران: ٨٣.

(٧) انظر: تفسير الطبري ٣/٣٣٤ - ٣٣٦، وتفسير ابن كثير ٢/٧٢٩، وتفسير المنار لمحمد رشيد ٩/ ٣٥٤ - ٣٥٥.

به حجة [١].

٥ ــ تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ بأنه لا تبديل للخلقة التي جبل عليها المولود من كفر أو إيمان، يرد عليه بما يلي[٢]:

أ ــ أن الآية فيها قولان:

أحدهما: أن معناها النهي، أي لا تبدلوا دين الله الذي فطر عليه عباده، وهذا قول غير واحد من المفسرين واختاره ابن جرير [٣].

والثاني: ماذهب إليه أصحاب هذا القول من أنها خبر على ظاهرها، وأن خلق الله لا يبدّله أحد، وظاهر اللفظ أنه خبر فلا يجعل نهياً بغير حجة، وهذا أصح.

ب ــ على القول بأن ظاهر اللفظ أنه خبر يكون معنى الآية أن ما خلقهم الله عليه من الفطرة لا تبدل، فلا يخلقون على غير الفطرة، لا يقع هذا قط، والمعنى أن الخلق لا يتبدّل فيخلقون على غير الفطرة، و لم يرد بذلك أن الفطرة لا تتغير بعد الخلق، بل نفس الحديث يبيّن أنها تتغير، ولهذا شبهها بالبهيمة التي تولد جمعاء ثم تجدع ولا تولد بهيمة قط مخصيّة ولا مجدوعة ، وقد قال تعالى عن الشيطان: ﴿ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ ﴾[٤]. فالله أقدر الخلق على أن يغيروا ما خلقهم عليه بقدرته ومشيئته. وأما تبديل الخلق بأن يخلقوا على غير

---

(١) انظر: الدرء لابن تيمية ٤٢٤/٨.

(٢) انظر: المصدر السابق ٤٢٤/٨ - ٤٢٧، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ٥٨٢/٢ - ٥٨٤.

(٣) انظر: تفسير الطبري ١٨٣/١٠.

(٤) النساء: ١١٩.

تلك الفطرة، فهذا لا يقدر عليه إلا الله، والله لا يفعله كما قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: لا تغيير، فإن تبديل الشيء يكون بذهابه وحصول بدله، فلا يكون خلقٌ بدل هذا الخلق، ولكن إذا غُيّر بعد وجوده لم يكن الخلق الموجود عند الولادة قد حصل بدله.

ج ـ قولهم: لا تبديل للخلقة التي جبل عليها ولد آدم كلهم من كفر وإيمان، إن عنوا به أن ما سبق به القدر من الكفر والإيمان لا يقع خلافه فهذا حق، ولكنه لا يقتضي أن تبديل الكفر بالإيمان وبالعكس ممتنع، ولا أنه غير مقدور، بل العبد قادر على ما أمره الله به من الإيمان وعلى ترك ما نهاه عنه من الكفر، وعلى أن يبدّل سيئاته بحسنات بالتوبة، قال تعالى: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[2].

وهذا التبديل كلّه هو بقضاء الله وقدره، وهذا بخلاف ما فطروا عليه حين الولادة، فإن ذاك خلق الله الذي لا يقدر عليه غيره، وهو سبحانه لا يبدّله قط، بخلاف تبديل الكفر بالإيمان وبالعكس، فإنه يبدّله دائماً، والعبد قادر على تبديله بإقدار الله له على ذلك.

د ـ أنه قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[3]. وهذه فطرة محمودة، أمر الله بها نبيّه، فكيف يكون فيها كفر أو إيمان مع أمر الله تعالى بها، وهل يأمر الله تعالى قط بالكفر؟ وهو أظلم الظلم وأفحش الفحش. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ

---

(١) النمل: ١١.

(٢) الفرقان: ٧٠.

(٣) الروم: ٣٠.

بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1].

هـ ــ أن السلف ــ رحمهم الله ــ فسروا قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ بأنه : دين الله، أو تبديل خلق الحيوان بالخصاء ونحوه، ولم يقل أحد منهم إن المراد: لا تبديل لأحوال العباد من إيمان إلى كفر ولا من كفر إلى إيمان، إذ تبديل ذلك موجود، ومهما وقع كان هو الذي سبق به القدر، والله تعالى عالم بما سيكون، لا يقع خلاف معلومه، لكن إذا وقع التبديل كان هو الذي علمه وإن لم يقع كان عالماً بأنه لا يقع.

٦ ــ استدلالهم بالغلام الذي قتله الخضر بأنه طبع يوم طبع كافراً، يجاب عنه بما سبق في الرد على أصحاب القول السابق[2] في استدلالهم بقصة هذا الغلام ويضاف إلى ذلك ما يلي[3]:

أ ــ أن المراد بالطبع في الحديث كَتَب وخَتَم، وهذا من طبع الكتاب، وإلا فاستنطاقهم بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾. ليس هو طبعاً لهم، فإنه ليس بتقدير ولا خلق ولفظ « الطبع » لما كان يستعمله كثير من الناس في الطبيعة، التي هي بمعنى الجبلّة والخليقة ظنَّ الظان أن هذا مراد الحديث.

ب ــ أن هذا الغلام الذي قتله الخضر يُحتمل فيه أمران:

أولاً: أنه كان بالغاً مطلقاً، وسمي « غلاماً » لقرب عهده بالبلوغ. وعلى هذا فلا إشكال لأنه صار كافراً بلا نزاع، وعلى هذا يجوز قتله.

---

(١) الأعراف: ٢٨ - ٢٩.

(٢) انظر: المبحث السابق ص ١٠٢ - ١٠٤.

(٣) انظر: الدرء لابن تيمية ٨/٤٢٧ - ٤٢٩، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ٢/٥٨٤- ٥٨٧.

ثانياً: أنه كان مميزاً عاقلاً و لم يكن بالغاً وعليه يدل الحديث الصحيح: «ولو أدرك لأرهق أبويه طغياناً وكفراً» وعلى هذا فلا يمتنع أن يكون مكلفاً في تلك الشريعة إذ اشتراط البلوغ في التكليف إنما علم بشريعتنا، ولا يمتنع تكليف المراهق العاقل عقلاً، وقد قال جمع من أهل العلم: إن المميزين يكلفون بالإيمان قبل الاحتلام، وعلى هذا يمكن أن يكون مكلفاً بالإيمان قبل البلوغ ولو لم يكن مكلفاً بشرائعه، فكفر الصبي المميز معتبر عند أكثر العلماء، فإذا ارتد الصبي المميز صار مرتداً عندهم، ولو كان أبواه مؤمنين، ويؤدب على ذلك باتفاق العلماء أعظم مما يؤدب على ترك الصلاة . لكن لا يقتل في شريعتنا حتى يبلغ فيثبت عليه كفره، وبناءاً على ما سبق فقتل ذلك الغلام في تلك الشريعة جائز لأنه قتله بأمر الله، ولئلا يفتن أبويه عن دينهما، كما يقتل الصبي الكافر في ديننا، إذا لم يندفع ضرره عن المسلمين إلا بالقتل.

ج ــ قد يقول أصحاب هذا المذهب: إنه ليس في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة دليل على جواز قتل الصبي الذي لم يكفر بعد وهو بين أبوين مؤمنين لمجرد العلم بأنه إذا بلغ كفر وفتنهما ، وقاعدة الشرع والجزاء أن الله تعالى لم يأمر أن يعاقب أحدٌ بما يُعلم أنه يكون منه قبل أن يكون منه، ولا هو سبحانه يعاقب عباده بما يَعلم أنهم سيعملونه حتى يفعلوه.

فيقال لهم: بل في السنة ما يدل عليه ومنه قول ابن عباسٍ ــ رضي الله عنهما ــ لنجدة الحروري لما سأله عن قتل الغلمان: «إن علمت منهم ما علمه الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم وإلا فلا» [1] والمعلوم من الكتاب و السنة لا يُعارض إلا بما يصلح أن يعارض به.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه بنحوه، كتاب الجهاد والسير، باب النساء الغازيات ٣/١٤٤٥، حديث رقم ١٨١٢.

ثم إنه ليس في قصة الخضر شيء من الإطلاع على الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وإنما فيها علمه بأسباب تقتضي أحكامها و لم يعلم موسى تلك الأسباب: مثل علمه بأن السفينة لمساكين وراءهم ملك ظالم، وهذا أمرٌ يعلمه غيره، وكذلك كون الجدار لغلامين يتيمين وأن أباهما كان رجلاً صالحاً، هذا مما قد يعلمه كثير من الناس، فكذلك كفر الصبي مما يمكن أنه كان يعلمه كثير من الناس حتى أبواه لكن لحبهما له لا ينكران عليه، أو لا يقبل منهما الإنكار عليه ، وإذا كان الأمر كذلك فليس في الآية حجة على أنه قتل لما يتوقع من كفره، بل قتل لما تلبس به من الكفر.

د ــ لو قُدّر أن ذلك الغلام لم يكفر أصلاً، ولكن سبق في علم الله أنه إذا بلغ يكفر، وأطلع الله الخضر على ذلك، فهذا مما يبين أنه قتل قبل أن يصير كافراً، ومن قال هذا يقول: إنه قتل دفعاً لشره.

٧ ــ استدلالهم بدعاء نوح ــ عليه السلام ــ على أطفال قومه بالهلاك مردودٌ بأمرين:

أ ــ أنه دعا عليهم بالهلاك العام دفعاً لشرهم في المستقبل.

ب ــ أن قوله : ﴿ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ لا ينافي كونهم مولودين على الفطرة الصحيحة، فإن قوله « فاجراً كفاراً » حالان مقدرتان : أي سيفجر ويكفر [1]. فدّل على أنه لا يولد كافراً.

٨ ــ استدلالهم بقول عبدالله بن عباس ــ رضي الله عنهما ــ: « وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين » . فهي قراءة صحيحة وظاهرها أنه

---

(١) انظر: الدرء لابن تيمية ٤٢٩/٨ - ٤٣٠، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ٥٨٧/٢.

كان حين قتله كافراً لا أنه ولد وفُطر كافراً [١].

٩ ــ تفسيرهم لقوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ: (**فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**) أنه مجرد الإلحاق في أحكام الدنيا دون أن يكون أراد أنهما يغيّران الفطرة يرد عليه بما يلي[٢]:

أ ــ أنه خلاف ما يدل عليه الحديث، فإنه شبه تكفير الأطفال بجدع البهائم تشبيهاً للتغيير بالتغيير.

ب ــ أنه ذكر الحديث لـمّا قَتَلوا أولاد المشركين، ونهاهم عن قَتْلهم، وقال: « **أليس خياركم أولاد المشركين؟ كل مولود يولد على الفطرة** » فلو أراد أنه تابع لأبويه في الدنيا لكان هذا حجة لهم، يقولون: هم كفار كآبائهم فنقتلهم.

ج ــ كون الصغير يتبع أباه في أحكام الدنيا ، هو لضرورة حياته في الدنيا، فإنه لابد له من مربّ يربيه، وإنما يربيه أبواه، فكان تابعاً لهما ضرورة، ولهذا متى سبي منفرداً عنهما صار تابعاً لسابيه عند جمهور العلماء ، لكونه هو الذي يربيه، وإذا سبي منفرداً عن أحدهما أو معهما ففيه نزاع للعلماء.

د ــ احتجاج الفقهاء بهذا الحديث على أ نه متى سُبي منفرداً عن أبويه يصير مسلماً، لا يستلزم أن يكون المراد بتكفير الأبوين مجرد لحاقه بهما في الدين، ولكن وجه الحجة أنه إذا ولد على الملّة فإنما ينقله عنها الأبوان اللذان يغيّرانه عن الفطرة، فمتى سباه المسلمون منفرداً عنهما لم يكن هناك مَنْ يغيّر دينه، وهو مولود على الحنيفية، فيصير مسلماً بالمقتضى السالم عن المعارض.

---

(١) انظر: الدرء لابن تيمية ٨/٤٣٠، وفطرية المعرفة لحمدان ١٩٠.

(٢) انظر: الدرء لابن تيمية ٨/٤٣٠ - ٤٣١، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ٢/٥٨٧ - ٥٨٨.

هـ ــ لو كان الأبوان يجعلانه كافراً في نفس الأمر بدون تعليم وتلقين، لكان الصبي المسبي بمنزلة البالغ الكافر، ومعلوم أن الكافر البالغ إذا سباه المسلمون لم يصر مسلماً. لأنه صار كافراً حقيقة، فلو كان الصبي التابع لأبويه كافراً حقيقة لم ينتقل عن الكفر بالسباء، فعلم أنه كان يجري عليه حكم الكفر في الدنيا تبعاً لأبويه، لا لأنه صار كافراً في نفس الأمر.

يبين ذلك لو سباه كفار و لم يكن معه أبواه لم يصر مسلماً، فهو هنا كافر في حكم الدنيا، وإن لم يكن أبواه هوّداه ونصّراه ومجسّاه. فعلم أن المراد بالحديث أن الأبوين يلقنانه الكفر ويعلّمانه إيّاه.

وذكر ــ ﷺ ــ الأبوين، لأنهما الأصل العام الغالب في تربية الأطفال فإن كل طفل غُيّر فلابد له من أبوين وهما اللذان يربيانه مع بقائهما وقدرتهما، بخلاف ما إذا ماتا أو عجزا لسبي الولد عنهما أو غير ذلك.

١٠ ــ يرد على أصحاب هذا القول ــ أيضاً ــ بقوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ: (**كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فإما شاكراً وإما كفوراً**) . فجعَله على الفطرة إلى أن يعقل ويميز، فحينئذ يثبت له أحد الأمرين، ولو كان كافراً في الباطن بكفر الأبوين، لكان ذلك من حين يولد، قبل أن يعرب عنه لسانه [1].

١١ ــ يرد عليهم ــ أيضاً ــ بقوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ فيما يحكيه عن ربه تعالى: (**إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين، وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً**)، فهذا دليلٌ صريح أنّهم خلقوا على الحنيفية، وأن الشياطين اجتالتهم وحرمَّت

---

(١) انظر: الدرء لابن تيمية ٤٣٢/٨، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ٥٨٨/٢.

عليهم الحلال وأمرهم بالشرك، فلو كان الطفل يصير كافراً في نفس الأمر من حين يولد، لكونه يتبع أبويه في الدين قبل أن يعلّمه أحد الكفر ويلقنّه إيّاه، لم يكن الشياطين هم الذين غيّروهم عن الحنيفية وأمروهم بالشرك، بل كانوا مشركين من حين ولدوا تبعاً لآبائهم [١].

١٢ــ أن أصحاب هذا القول اشتبه عليهم الأمر، والسبب في ذلك تشبيههم لأحكام الكفر في الدنيا بأحكام الكفر في الآخرة، ــ وقد سبق الرد على هذه الشبهة عند ذكر أسباب الاختلاف في معنى الفطرة ــ[٢].

١٣ ــ احتجاج إسحاق بحديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ يرد عليه بما سبق في مناقشة استدلال أصحاب القول الثاني بهذا الحديث [٣].

١٤ ــ يرد على استدلالهم بقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ بما سبق الرد به على أصحاب القول الثاني في استدلالهم بهذه الآية أيضاً [٤].

١٥ــ قول إسحاق ــ رحمه الله ــ: إن العلماء أجمعوا على أن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أنها الأرواح قبل الأجساد يرد عليه بما يلي:

أ ــ قوله هذا ــ رحمه الله ــ هو قول بما بلغه وانتهى إليه علمه ، ولكن ليس ذلك بإجماع، بل وقع في هذه المسألة خلاف بين أهل العلم [٥].

---

(١) انظر: الدرء لابن تيمية ٤٣٢/٨، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ٥٨٩/٢.

(٢) انظر: ص ٦٧-٦٩ من هذا البحث والرد ٩ من هذا المبحث.

(٣) انظر: ص ٩٤-٩٦ من هذا البحث.

(٤) انظر: ص ٩٧-١٠١ من هذا البحث.

(٥) انظر: أحكام أهل الذمة لابن القيم٥٩٧/٢، والباب الثالث من هذه الرسالة: ٥٧٧، حاشية (٢).

ب ـ جمهور القائلين بأن الأرواح خلقت قبل الأجساد لم يذكروا هذا المعنى الذي إدعاه أصحاب هذا القول ، بل قالوا: إنهم أقروا له جميعاً بالربوبية و لم يذكروا أن بعضهم أقر بها طوعاً وبعضهم أقر بها كرهاً. وهذا مما يؤكد ضعف هذا القول [١].

(١) انظر: فطرية المعرفة لحمدان ١٨٩.

المبحث الرابع

القول بأن الفطرة هي الميثاق

فسّر أصحاب هذا القول ـــ قوله عليه الصلاة والسلام ـــ: (**كل مولود يولد على الفطرة**) بأنه الميثاق الذي أخذه الله تعالى من ذرية آدم ـــ عليه السلام ـــ قبل أن يخرجوا إلى الدنيا يوم استخرجهم من ظهره فخاطبهم : «ألست بربكم قالوا: بلى » فأقروا جميعاً له بالربوبية عن معرفة منهم به، ثم أخرجهم من أصلاب آبائهم مخلوقين مطبوعين على تلك المعرفة، وذلك الإقرار، فلست واجداً أحداً إلا وهو مقر بأن له صانعاً ومدبّراً، وإن سماه بغير اسمه، أو عبد شيئاً دونه، ليُقَرّبَهُ منه عند نفسه، أو وصفه بغير صفته، أو أضاف إليه ما تعالى عنه علواً كبيراً، فكل مولود في العالم على ذلك العهد والإقرار. وقالوا: وليست تلك المعرفة بإيمان، ولا ذلك الإقرار بإيمان، ولكنه إقرار من الطبيعة[1] للرب، فطرة ألزمها قلوبهم ثم أرسل إليهم الرسل، فدعوهم إلى الاعتراف له بالربوبية والخضوع، تصديقاً بما جاءت به الرسل، فمنهم من أنكر وجحد بعد المعرفة وهو به عارف، لأنه لم يكن الله ليدعو خلقه إلى الإيمان به وهو لم

---

(١) الطبيعة هي هذا الكون الفسيح بجزئياته الصغيرة والكبيرة، وهي سنته تعالى في خليقته التي أجراها عليهم. انظر : مفتاح دار السعادة ٢٧٢/١، والموسوعة الميسرة ١٠٩٧/٢.

يُعرّفهم نفسه، إذ يكون حينئذ قد كلفهم الإيمان بما لا يعرفون [١].

أصحاب هذا القول:

نُسب هذا القول إلى جماعة من أهل العلم منهم: الأوزاعي[٢] وحماد بن سلمة[٣] وحماد بن زيد وسحنون[٤].

وقال به أيضاً: ابن قتيبة [٥] وأبو جعفر النحاس[٦] وابن بطة[٧] وأيّده الطيبي [٨]. ونسب أيضاً هذا القول إلى الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ وردّ على هذه النسبة شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ فقال: « أحمد لم يذكر العهد الأول ، وإنما قال: الفطرة الأولى التي فطُر الناس عليها، وهي الدين. وقد قال في غير موضع: إن الكافر إذا مات أبواه أو أحدهما حكم بإسلامه ، واستدل بهذا الحديث (**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودّانه وينصرانه ويمجسانه**) فدّل على أنه فسّر الحديث: بأنه يولد على فطرة الإسلام، كما جاء ذلك مصرّحاً به في الحديث: ولو لم يكن كذلك لما صحّ استدلاله بالحديث»[٩]

---

(١) انظر: التمهيد لابن عبدالبر ١٨/٩٠-٩١، وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ٩٥.

(٢) انظر: سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في ذراري المشركين ٤/٢٣٠، والبيهقي في سننه باب الولد يتبع أبويه ٦/٢٠٣.

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر ٣/٢٩٣.

(٤) انظر: فتح الباري ٣/٢٩٣.

(٥) انظر: تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة: ٩٥.

(٦) انظر: معاني القرآن للنحاس ٣/١٠٢.

(٧) انظر: الإبانة [القدر] لابن بطة ٢/٧٢ - ٧٤.

(٨) انظر: الكاشف عن حقائق السنن للطيبي ١/٢٣٥ - ٢٣٦.

(٩) الدرء لابن تيمية: ٨/٣٦١.

أدلة أصحاب هذا القول وحججهم:

١ ــ استدلوا بقوله تعالى ــ عن المشركين ــ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [١] وغيرها من الآيات التي يُقر فيها المشركون بأن الله هو الخالق الرازق المدبر سبحانه.

٢ــ استدلوا بالأثر الذي ذكره السدي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [٢] الآية. ــ وقد سبق ذكره ــ [٣].

٣ ــ استدلوا بحديث أبي بن كعب ــ رضي الله عنه ــ في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ الآية . قال: « جمعهم جميعاً فجعلهم أرواحاً ثم صوّرهم ثم استنطقهم فقال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم هذا، قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ولا إله لنا غيرك، قال: فإني أرسل إليكم رسلي، وأنزل عليكم كتبي فلا تكذبوا رسلي، وصدقوا بوعدي، وإني سأنتقم ممن أشرك بي، ولم يؤمن بي، قال: فأخذ عهدهم وميثاقهم، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم، فرأى منهم الغني والفقير، وحسن الصورة، وغير ذلك، فقال: يارب، لو سويت بين عبادك؟ قال: أحببت أن أشكر. قال: والأنبياء يومئذ بينهم مثل السرج، قال: وخصوا بميثاق آخر للرسالة أن يبلغوها، قال: فهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ [٤] الآية، قال: وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها،

---

(١) الزخرف: ٨٧.

(٢) الأعراف: ١٧٢.

(٣) انظر: ص ١١١-١١٥ من هذه الرسالة.

(٤) الأحزاب: ٧.

وذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾ [١] وذلك قوله: ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ﴾ [٢] قال: فكان في علم الله من يكذب به ومن يصدق...» [٣] الحديث.

٤ــ استدلوا بما روي عن حماد بن سلمة أنه سئل عن قول النبي ــ ﷺ ــ: (**كل مولود يولد على الفطرة**) فقال: هذا عندنا حيث أخذ العهد عليهم في أصلاب آبائهم [٤].

٥ ــ احتجوا بحديث أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ يرفعه: (إن الله يقول لأهون أهل النار عذاباً: لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به؟ قال: نعم، قال: فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك بي فأبيت إلا الشرك).

٦ ــ احتجوا بأن التعريف في قوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ: (**يولد على الفطرة...**): فيه إشارة إلى معهود وهو قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾ لأن معنى المأمور به بقوله « فأقم وجهك » أثبت على العهد القديم، المعني به قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [٥].

---

(١) الأعراف: ١٠٢.

(٢) الأعراف: ١٠١.

(٣) أخرجه أحمد في المسند برقم ٢١٢٧٠، وابن جرير في تفسيره ١١٤/٦، والحاكم في المستدرك كتاب التفسير، تفسير سورة الأعراف ٣٥٣/٢. والحديث موقوف على أبي بن كعب رضي الله عنه. انظر: ٥١٥- ٥١٦ من هذا البحث.

(٤) انظر: فتح الباري لابن حجر: ٢٩٣/٣.

(٥) انظر: الكاشف عن حقائق السنن للطيبي ٢٣٥/١.

٧ ــ ما جاء في طرق هذه الرواية « **ما من مولود إلا وهو على الملّة** » ، والدين في قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ هو عين الملّة، لقوله تعالى: ﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [١] ولقوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ حكاية عن ربّه ــ : (**إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**) [٢].

٨ ــ التشبيه بالمحسوس المعاين، ليفيد أن ظهوره بلغ في الكشف والبيان مبلغ هذا المحسوس المشاهد، ثم قيّده بقوله: « هل تحسون » تقريراً لذلك فالعَالَم إمّا عَالَم غيب وإمّا عَالَم شهادة، فإذا نزل الحديث على عالَم الغيب أشكل معناه وإذا صُرف إلى عالَم الشهادة الذي عليه مبني ظاهر الشرع سهل تعاطيه.

وتحريره: « أن الناظر إلى المولود نفسه من غير اعتبار عالم الغيب وأنه ولد على الخلقة التي خلق الله الناس عليها ــ من الاستعداد للمعرفة وقبول الحق والتأبي عن الباطل والتمييز بين الخطأ والصواب ــ حَكَمَ بأنه لو تُرك على ما هو عليه ولم يعتوره من الخارج ما يصده عن النظر الصحيح من فساد الرتبة وتقليد الأبوين والإلف بالمحسوسات والإنهماك في الشهوات ونحو ذلك، استمر على ما كان عليه من الفطرة السليمة ولم يختر عليه شيئاً ولم يلتفت إلى جنبه سواها، لكن يصده عن ذلك أمثال هذه العوائق » [٣].

مناقشة هذا القول:

١ــ هذا القول يحقق القول الراجح في أن كل مولود يولد على الفطرة ،

---

(١) الأنعام: ١٦١.

(٢) انظر: الكاشف عن حقائق السنن للطيبي ١/٢٣٥.

(٣) المصدر السابق: ١/٢٣٦.

التي هي المعرفة بالله تعالى والإقرار به، وفيه زيادة: أن ذلك كان قد حصل لهم قبل الولادة حين استخرجوا من صُلب آدم ـــ عليه السلام ـــ [١].

٢ ـــ قول أصحاب هذا القول: « إن هذا الإقرار ليس بإيمان يستحق عليه الثواب » فهذا لا يضر، لأنهم قد بينوا فيه أن المعرفة بالله ضرورية، وأنه بذلك صح أن يأمرهم، فإن المأمور إن لم يعرف الآمر امتنع أن يعرف أنه أمره. ولو لم تكن المعرفة ثابتة في الفطرة لكان الرسول إذا قال لقومه: أدعوكم إلى الله، لقالوا مثل ما قال فرعون : وما رب العالمين ؟ إنكاراً له وجحداً، وأمكن أن يكون قولهم متوجهاً.

وفرعون لم يقل هذا لعدم معرفته في الباطن بالخالق لكن أظهر خلاف ما في نفسه كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [٢].

ومثلُ فرعون أولئك المكذبين للرسل لما قالوا لرسلهم: ﴿ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [٣]. فأجابهم الله : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ [٤] وهذا استفهام إنكار بمعنى النفي والإنكار على من لم يقر بهذا النفي. والمعنى: ما في الله شك وأنتم تعلمون أنه ليس في الله شك، ولكن تجحدون ذلك وتستحقون أن ينكر عليكم جحودكم. فدل هذا على أنه ليس في الله شك عند الخلق المخاطبين وأنهم جميعاً مفطورون على الإقرار بها [٥].

---

(١) انظر: الدرء لابن تيمية ٨/٤٤٠.

(٢) النمل: ١٤.

(٣) إبراهيم: ٩.

(٤) إبراهيم: ١٠.

(٥) انظر: الدرء لابن تيمية ٨/٤٤٠ - ٤٤١.

المبحث الخامس

القول بأن الفطرة هي الإسلام

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تقرير حقيقة الفطرة من خلال النصوص الشرعية

المطلب الثاني: مناقشة الاعتراضات على هذه الحقيقة

المطلب الأول

تقرير حقيقة الفطرة من خلال النصوص الشرعية

بعد ذكر جملة من أقوال أهل السنة والجماعة في بيان حقيقة الفطرة ومناقشتها أصِلُ هنا إلى ذكر القول الراجح ــ وهو أن الفطرة هي الإسلام ــ وسأبدأ أولاً بتقرير هذا القول من خلال جملة من الأدلة، ومنها:

أولاً: قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

۞ قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ الفاء هي الفاء الفصيحة، وقد أفصحت عن شرط مقدر دخلت هي على جوابه والتقدير: إذا علمت أحوال المعرضين عن دلائل الحق، فأقم وجهك للدين والمقصود من الأمر دوام القيام لا بدايته لأنه كان مقيماً عليه وقت نزول الآية. وأقم من أقام العود، أو قوّمه إذا عدّله، والمراد الأمر بالإقبال على دين الإسلام والاستقامة والثبات عليه، والاهتمام بترتيب أسبابه ، على أن الكلام تمثيل لذلك، فإن مَنْ اهتم بشيء محسوس بالبصر عقد إليه طرفه وسدّد إليه نظره، وأقبل عليه بوجهه غير ملتفت عنه، وقيل إقامة

---

(١) سورة الروم: ٣٠.

الوجه للشيء كناية عن كمال الاهتمام به[١]. وقيل لأن إقامة الوجه تبع لإقبال القلب، ويترتب على الأمرين سعي البدن [٢]، وقيل لأن الوجه جامعُ حواس الإنسان وأشرفُه[٣]، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: «فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملّة إبراهيم الذي هداك لها وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره» [٤].

۞ قوله : ﴿ لِلدِّينِ ﴾ المقصود به دينٌ معيّن فأل فيه للعهد، وهو دين الإسلام [٥].

۞ قوله : ﴿ حَنِيفًا ﴾ الحنف هو الميل، « وغلب استعمال هذا الوصف في الميل عن الباطل أي العدول عنه بالتوجه إلى الحق، أي عادلاً ومنقطعاً عن الشرك كقوله تعالى: ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [٦] » [٧].

وقد ذكر ابن جرير ـ رحمه الله ـ اختلاف أهل التأويل في تفسير الحنيف

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود ٦٠/٧، روح المعاني للألوسي ٣٩/٢١، والإسلام فطرة الخلق وشريعة الوجود لمتولي ١١.

(٢) تفسير السعدي: ٨٥/٤.

(٣) انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٤٥٢/١١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٤/١٤، والبحر المحيط لأبي حيان ١٧١/٧.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٢٠/٦.

(٥) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: ٨٩/٢١.

(٦) البقرة: ١٣٥.

(٧) المصدر السابق: ٨٩/٢١.

ثم قال بعد ذلك ما خلاصته: أن الحنيفية ليست خاصة بالختان وحده، ولا حج البيت وحده، بل هي الاستقامة على ملة إبراهيم واتباعه عليها والائتمام به فيها، وسبب إضافة الحنيفية إلى إبراهيم وملّته دون من قبله من الأنبياء أن الله لم يجعل أحداً منهم إماماً لمن بعده من عباده إلى قيام الساعة، كما فعل بإبراهيم حيث جعله إماماً فيما بيّنه من مناسك الحج والختان وغير ذلك من شرائع الإسلام وجعل التعبد بذلك إلى قيام الساعة، بل جعل ما سنّه إبراهيم عَلَماً مُميزاً بين مؤمني عباده وكفارهم والمطيع منهم والعاصي. فسمي الحنيف من الناس حنيفاً باتباعه ملته ، واستقامته على هديه ومنهاجه وسمي الضال عن ملته بسائر أهل الملل فقيل: يهودي ونصراني ومجوسي، وغير ذلك من صنوف الملل[1]. « فالحنيفية ملة إبراهيم تتناول كل من عبدالله وحده بما أمره به كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [2]. فكل الأنبياء الذين بعثوا بعد إبراهيم وأتباعهم على ملة إبراهيم، لكن محمد ﷺ أولاهم به، وشرعه أقرب إلى شرع إبراهيم من وجوه متعددة، كأمره بحج البيت وغيره، ... وقوله: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ [3]نفي أن يكون على ما اختص به شرع التوراة والإنجيل، وليس على ملة إبراهيم، بل ملة إبراهيم أن يعبد الله وحده بما أمر، ومحمد أمر بملة إبراهيم، وأمر بها أن يعبد الله وحده، ورفع به الآصار والأغلال التي كانت على أهل الكتاب ولم تكن

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١/٦١٥ – ٦١٨.

(٢) سورة البقرة: ١١١ – ١١٢.

(٣) سورة آل عمران: ٦٧.

مشروعة لإبراهيم ، فكان الشرع الذي بعث به أولى بإبراهيم »[١] قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[٢].

ومن الآيات التي تشهد أن الحنيفية هي الإسلام قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾[٣]. وقوله: ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾[٤] وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾[٥].

ومن الأحاديث الدالة على ذلك أيضاً قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**بعثت بالحنيفية السمحة** »[٦]. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قيل يا رسول الله أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: « **الحنيفية السمحة** »[٧]. وعن أُبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: (**إنّ الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن، فقرأ عليه : ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾**[٨] **وفيها**

---

(١) تفسير آيات أشكلت لابن تيمية: ١/٢٧٩ - ٢٨١.

(٢) آل عمران: ٦٨.

(٣) النساء: ١٢٥.

(٤) الأنعام: ٧٩.

(٥) الأنعام: ١٦١.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده برقم ٢٢٣٤٥، و ٢٤٨٩٩، و ٢٦٠٠٤ [طبعة قرطبة]، والطبراني في الكبير برقم ٧٧١٥، و٧٨٦٨، و ٧٨٨٣.

(٧) أخرجه أحمد في مسنده برقم ٢١٠٧، وذكره البخاري في صحيحه تعليقاً، كتاب الإيمان، باب الدين يسر ١/٢٢، وفي الأدب المفرد موصولاً برقم ٢٨٧، والطبراني في الكبير برقم ١١٥٧١، وفي الأوسط رقم ١٠١٠.

(٨) البينة: ١.

إن ذات الديـــن عـــند الله الحنيفـــية المسلمة لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوســـية مـــن يعمل خيراً فلن يكفره... الحديث) [١] . ومن الشواهد قول الراعي النميري:

أخليفة الرحمن إنّا معشـــر حنفاء نسجد بكـــرة وأصـــيلا

عرب نرى لله في أموالنـــا حق الزكاة منـــزلٌ تنـــزيـــلا

۞ قولـــــه : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ﴾ منصوبة بفعل مقدر، أي اتبع أو الزم فطرة الله، وقيل منصوبة على المصدرية التي دلَّ عليها الفعل الأول « أقم » ومعناها: فطر الله الناس على ذلك فطرة، وعلى أيّ من التقديرين فإن إ قامة الوجه للدين حنيفاً هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، وذلك مأمور باتباعه إما صراحةً وإما تلمـــيحاً، لأنها جاءت مضافة إلى الله إضافة مدح لا إضافة ذم، وفي هذا ما فيه من تشريفها وتوكيد تمامها وكمالها وتمام الدين المعبّر بها عنه وكماله، وقد أمر نبيه بلزومها فعلم أنها الإسلام [٢].

وقـــيل بأن « فطرة الله » بدل من « حنيفاً » بدل اشتمال فهو في معنى الحـــال من الدين وهو حال ثانية، وهذا يفيد أن هذا الدين مختص بوصفين هما: التبرؤ من الإشراك، وموافقة الفطرة [٣].

---

(١) أخرجه الترمذي بلفظه في سننه، كتاب المناقب، باب من فضائل أبي بن كعب ٥/٧١١، وأصل الحديـــث في الصـــحيحين بغـــير هذا اللفظ. فقد أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصـــحابة باب مناقب أبي بن كعب ٣/١٣٨٥ ومسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين باب قراءة القرآن على أهل الفضل ١/٥٥٠.

(٢) انظـــر: الدرء لابن تيمية ٨/٣٧٢، وفتح الباري لابن حجر ٣/٢٩٣، وتفسير القرطبي ١٤/٢٤، والمحرر الوجيز لابن عطية ١١/٤٥٣، ومنهج الاستدلال عثمان حسن ١/٢٠٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٢١/٨٩.

۞ قولـــه : ﴿ فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ بيان لمعنى الإضافة في قوله « فطرة الله » وتصـــريح بـــأن الله خلق الناس سالمة عقولهم مما ينافي الفطرة ، وكون الإسلام هو الفطرة وملازمة أحكامه لمقتضيات الفطرة صفة اختص بها الإسلام من بين سائر الأديان في تفاريعه أما أصوله فاشتركت فيها الأديان الإلهية [١].

وقـــد ذكـــر ابن عبدالبر إجماع أهل التأويل من السلف على أن المراد بـــ «فطـــرة الله » في الآية دين الإسلام [٢]، ـــ وســـيأتي ذكر القائلين بهذا القول من السلف عند ذكر من قال به [٣] ـــ.

۞ قوله : ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ ذكر ابن كثير في تفسيره قولين هما:

١ـــ أنـــه خبر بمعنى الطلب، ومعناه لا تبدلوا خلق الله، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها.

٢ ـــ أنـــه خبر على بابه، ومعناه أن الله تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة فلا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك [٤].

ولهـــذا قـــال ابـــن عباس، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك ، وابن زيد، في قوله: (لا تبديل لخلق الله) أي لدين الله [٥].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٢١/٩٠، والمعرفة في الإسلام للقرني ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٢) انظر: التمهيد لابن عبدالبر: ١٨/٧٢.

(٣) انظر: ص ١٥٠ من هذا البحث.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير: ٦/٣٢٠. وانظر: ١١٦ ـــ١١٨ من هذا البحث.

(٥) انظر: تفسير ابن جرير: ١٠/١٨٣ - ١٨٤، وتفسير ابن كثير: ٦/٣٢٠.

وقـــال البخاري : « قوله: (لا تبديل لخلق الله) لدين الله، (خلق الأولين): دين الأولين. والفطرة الإسلام»[١].

ولا تعارض بين القول بأن اللام في قوله: « لا تبديل » للنفي أو للنهي، فالـــنفي صحيح فلا يولد مولود إلا وهو على الفطرة لا يستطيع أحد أن يبدل ذلك، فيجعل بعضهم يولد على الفطرة، وبعضهم يولد على غير الفطرة، والنهي أيضاً صحيح فمعناه لا تُغيّروا ولا تبدلوا دين الله وفطرته التي فطر الناس عليها.

۞ قولـــه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ اسم إشارة هنا يدل على زيادة تمييز هذا الدين مع تعظيمه كالإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[٢] والقيّم يعني: المستقيم الذي لا عوج فيه عن الاستقامة من الحنيفية إلى اليهودية و النصرانية، وغير ذلك من الضلالات والبدع المحدثة[٣].

وبعـــد هذا البيان لهذه الآية الكريمة يتبين أن هذه الآية بكل مفرداتها تدل على أن مقتضى الفطرة التي أمر الله بإقامة الوجه لها ولزومها هي الدين الحنيف وهو الإسلام، وأن خلق الناس على هذا المقتضى سُنة مطردة لا تتبدل ولا تتغير.

ثانـــياً: عن أبي هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ قال: قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ: **(كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟** ثم يقول أبو هريرة: إقراؤا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التفسير ٣٠ سورة الروم، باب لا تبديل لخلق الله.

(٢) البقرة: ٢.

(٣) انظر: تفسير ابن جرير ١٠/١٨٤، والإسلام فطرة الخلق وشريعة الوجود لمتولي: ١٨.

وفي روايـــة : (قالوا: يا رسول الله أرأيت من يموت وهو صغير؟ قال: **الله أعـــلم بمـــا كانوا عاملين**) وهذا الحديث يدل على أن المراد بالفطرة الإسلام وذلك من وجوه عدة منها:

١ـــ ألفاظ الحديث الأخرى الصريحة التي يفسر بعضها بعضاً في أن المولود يولد على الإسلام ومن هذه الألفاظ [١]:

(ما من مولود يولد إلا وهو على الملّة).

(ما من مولود يولد إلا على هذه الملّة حتى يبين عنه لسانه).

(ليس مولود يولد إلا على هذه الملّة).

(لا يولد مولود إلا على هذه الملّة).

(من يولد يولد على هذه الفطرة) .

(ليس من مولود يولد إلا على هذه الفطرة).

(ما من مولود يولد إلا على فطرة الإسلام حتى يعرب).

(كل مولود يولد من والد كافر أومسلم يولد على فطرة الإسلام)

(كل مولود يولد على الملّة).

(كل مولود على الفطرة).

(ما من مولود في بني آدم إلا يولد على الفطرة).

(ليس من مولود يولد إلا على هذه الملّة حتى يبين عنه لسانه).

(ما من مولود يولد إلا على الملّة).

---

(١) انظر: تخريج حديث أبي هريرة ص: ٥٢ ـــ٥٣ من هذا البحث.

ففي هذه الألفاظ التصريح بفطرة الإسلام، وبالملّة التي هي الإسلام.

٢ــ قول أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ في آخر الحديث: إقرأوا إن شئتم ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ يدل على أنه فسر الحديث بالآية، وأن الفطرة عنده هي الإسلام، وهذا التفسير له أهميته من وجوه:

أ ــ أنه تفسير صحابي، وتفسير الصحابة له دلالته وأهميته واعتباره، لأنهم هم نقلة الوحي وهم أعلم الأمة برسول الله ــ ﷺ ــ [(١)].

ب ــ أنه تفسير راوي الحديث، وتفسير الراوي له اعتباره لكونه أعلم بما سمع، قال شيخ الإسلام ــ ابن تيمية ــ رحمه الله: « الدلائل الدالة على أنه أراد فطرة الإسلام كثيرة ... [ومنها] تفسير أبي هريرة وغيره من رواة الحديث ذلك، وهم أعلم بما سمعوا » [(٢)].

ج ــ قراءة الآية عقب الحديث: صريح في أن المراد بالفطرة الإسلام[(٣)].

٣ ــ الحديث مطابق لقوله تعالى:﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ وهذا يعم جميع الناس فعلم أن الله فطر الناس كلهم على فطرته المذكورة، وفطرة الله أضافها إليه إضافة مدح لا إضافة ذم، فعلم أنها فطرة محمودة لا مذمومة وهي الإسلام[(٤)] ــ كما سبق في وجه دلالة الآية ــ.

---

(١) انظر: قواعد الترجيح عند المفسرين للحربي: ١/٢٧١ - ٢٨٢، ذكر أقوال العلماء في تقديم تفسير الصحابة.

(٢) الدرء لابن تيمية: ٨/٣٧١.

(٣) تهذيب سنن أبي داود لابن القيم: ١٢/٤٨٦.

(٤) انظر: الدرء لابن تيمية ٨/٣٧٢.

٤ ــ قوله: (**فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**) يدل أن المراد بالفطرة الإسلام لما يلي:

أ ــ ليس فيه لوجود الفطرة شرط بل ذكر ما يمنع موجبها كحصول اليهودية مثلاً متوقف على أشياء خارجة عن الفطرة بخلاف الإسلام، فعلم أن حصوله سبب منفصل غير حكم الكفر[١].

ب ــ اقتصر في أحوال التبديل على ملل الكفر دون ملة الإسلام، ولو كانت الفطرة هنا شيئاً غير الإسلام، لكان الرسول ﷺ قد ذكر الإسلام في جملة ما ذكر من الأديان التي تَفسُدْ الفطرة بالتحول إليها بفعل الأبوين أو الشياطين، ولقال « فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ويسلمانه » ولكنه لم يذكره، لأنه الدين الذي تتغير الفطرة بتحولها عنه وليس، بتحولها إليه [٢].

٥ ــ قوله: « **كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء**» فيه تشبيه المولود في ولادته عليها بالبهيمة الجمعاء، وهي الكاملة الخلق، ثم تشبيهه إذا خرج عنها بالبهيمة التي جدعها أهلها فقطعوا أذنها وهذا دليل على أن الفطرة هي الفطرة المستقيمة السليمة، وما يطرأ على المولود من التهويد والتنصير بمنزلة الجدع والتغيير في ولد البهيمة. وهذا جمع منه ﷺ بين تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير وتغيير الخلقة بالجدع وهما أمران أخبر إبليس أنه لابد أن يغيرهما فغير فطرة الله بالكفر وهو تغيير الخلقة التي خلقوا عليها، وغير الصورة بالجدع والبتك فغير الفطرة إلى الشرك والخلقة إلى البتك

---

(١) انظر: مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية ٢/٣٣٤، والدرء لابن تيمية ٨/٤٤٤، وفتح الباري لابن حجر ٣/٢٩٤.

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر ٣/٢٩٤، وقضية الخير والشر في الفكر الإسلامي للجليند: ٢٣٤.

والقطع، فهذا تغيير خلقة الروح وهذا تغيير خلقة الصورة [١].

٦ ــ ورود كلمة « الفطرة » في الحديث مطلقة معرفة باللام دليلٌ على أنه لا يراد بها إلا فطرة التوحيد والإسلام وهي الفطرة الممدوحة[٢]، وقد وردت الفطرة لا يراد بها إلا الإسلام في نصوص أخرى غير هذا الحديث[٣].

٧ ــ لو لم يرد الرسول ــ ﷺ ــ بالفطرة الإسلام، لما سأله الصحابة عقب ذلك عن أطفال المشركين الذين يموتون صغاراً، لأنه لو لم يكن هناك ما يغير الفطرة ما سألوه [٤].

ثالثاً: حديث عياض بن حمار ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ــ ﷺ ــ فيما يرويه عن ربّه ــ جل و علا ــ وفيه : (**إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً**) ووجه دلالة الحديث على أن الفطرة هي الإسلام ما يلي:

١ ــ أن الحديث صريح في خلق الناس كلهم على الحنيفية، والحنيف في كلام العرب يطلق على المستقيم المخلص ولا استقامة أكثر من الإسلام [٥]. ــ وقد سبق بيان أن الحنيفية هي الإسلام ــ[٦].

---

(١) انظر: الدرء لابن تيمية ٣٧٢/٨ و٣٧٧، وتهذيب سنن أبي داود لابن القيم ٤٨٦/١٢، وإغاثة اللهفان لابن القيم ٨٦/١.

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر ٢٩٣/٣، وتهذيب سنن أبي داود لابن القيم ٤٨٦/١٢.

(٣) هذه النصوص سبقت في دلالة السنة على وجود الفطرة ص ٥٢-٥٦.

(٤) انظر: الدرء لابن تيمية: ٣٧١/٨.

(٥) انظر: الدرء لابن تيمية: ٣٦٩/٨، و٤٣٢، وتفسير آيات أشكلت لابن تيمية ٣٩٣/١ - ٤٠٨، ولسان العرب لابن منظور ٥٦/٩ - ٥٧.

(٦) ص ١٣٢-١٣٦ من هذا البحث.

٢ ــ أن بعض الروايات للحديث صرحت بالإسلام فقالت: (**حنفاء مسلمين**) [١] وهذا يدل على أن الخلق، أول ما خلقوا وفطروا على الإسلام.

٣ــ أن الحديث بيّن أن انحراف الناس عما خلقوا عليه كان بفعل الشياطين، ولاشك أن الشياطين لا تَحرِف إلا عن الإسلام مما يدل على أنهم فطروا عليه.

قال ابن القيم ــ رحمه الله ــ : « هذا صريح في أنهم خلقوا على الحنيفية وأن الشياطين اقتطعتهم بعد ذلك عنها، وأخرجوهم منها. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾[٢] وهذا يتناول إخراج الشياطين لهم من نور الفطرة إلى ظلمة الكفر والشرك، ومن النور الذي جاءت به الرسل من الهدى والعلم إلى ظلمات الجهل والضلال » [٣].

رابعاً : حديث الأسود بن سريع ــ رضي الله عنه ــ :(أن رسول الله ــ ﷺ ــ بعث سرية يوم خيبر فقاتلوا المشركين فأفضى بهم القتل إلى الذرية، فلما جاؤا قال النبي ــ ﷺ ــ: **ما حملكم على قتل الذرية** فقالوا: يا رسول الله إنما كانوا أولاد المشركين، قال: **وهل خياركم إلا أولاد المشركين؟ والذي نفس محمد بيده ما من نسمة تولد إلا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها)** وفي رواية: (**ما من مولود يولد إلا على فطرة الإسلام حتى يعرب فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**).

---

(١) أخرج هذه الرواية الطبراني في الكبير برقم ٩٩٧، وابن عبدالبر في التمهيد ١٨/٧٣ - ٧٥ وبيّن أنه لا وجه لإنكارها.

(٢) البقرة: ٢٥٧.

(٣) أحكام أهل الذمة لابن القيم: ٢/٥٣٢.

ويقال في دلالة هذا الحديث ما قيل في حديث أبي هريرة من تعدد الرويات التي يفسر بعضها بعضاً ومن ذكر الملل دون ملة الإسلام وغير ذلك، ويضاف إليها:

١ـ أن نهيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن قتل أولاد المشركين وقوله لهم: وهل خياركم إلا أولاد المشركين؟ ثم ذكره لحديث الفطرة بعد ذلك دليل على أنهم ولدوا على الإسلام ثم طرأ الكفر بعد ذلك.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ: « وقد ظن بعضهم أن معنى قوله: (**أو ليس خياركم أولاد المشركين**) معناه: لعله أنه قد يكون سبق في علم الله أنهم لو بقوا لآمنوا فيكون النهي راجعاً إلى هذا المعنى من التجويز، وليس هذا معنى الحديث ولكن معناه إن خياركم هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وهؤلاء من أولاد المشركين، فإنَّ آبائهم كانوا كفاراً ثم إنَّ البنين أسلموا بعد ذلك فلا يضر الطفل أن يكون من أولاد المشركين إذا كان مؤمناً، فإن الله إنما يجزيه بعمله لا بعمل أبويه » [(١)].

٢ ـ قوله: (**حتى يعرب عنها لسانها**) جَعلٌ للمولود على الفطرة التي هي الإسلام، إلى أن يعقل ويميز وتعرب عنه لسانه وبعد ذلك يثبت له أحد الأمرين الكفر أو الإسلام، ولو كان كافراً في الباطن بكفر الأبوين، لكان ذلك من حين يولد، وقبل أن يعرب عنه لسانه [(٢)].

خامساً: قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (**خمس من الفطرة...**) وفي رواية: (**عشر من الفطرة..**) وهذه الأحاديث تدل على أن الفطرة هي الإسلام

---

(١) الدرء لابن تيمية: ٣٦٤/٨.

(٢) انظر: المصدر السابق ٤٣٢/٨.

لما يلي:

١ ــ أن هــذه الخصــال التي عُدت من الفطرة هي من خصال الإسلام وشعائره المعروفة.

٢ ــ ورد في رواية بدل « من الفطرة » « من السنة » [(١)] فالفطرة السنة والسنة هي الطريقة والشريعة، أي شريعة الإسلام.

٣ ــ صرح في لفظ بالإسلام بدل الفطرة فقال:«عشرٌ من سنن الإسلام».

سادساً: حديث البراء بن عازب ــ رضي الله عنه ــ قال: قال لي رسول الله ــ ﷺ ــ:

(**إذا أتيت مضجعك**... الحديث). وفيه : (**فإن مُتَّ مت على الفطرة**) أي الإسلام.

سابعاً: رأى حذيفة ــ رضي الله عنه ــ رجلاً لا يتم الركوع والسجود، قــال: « ما صليت ولو مُت مُت على غير الفطرة التي فطر الله محمداً ــ ﷺ ــ عليها »[(٢)].

قــال ابن الأثير ــ رحمه الله ــ : « أراد دين الإسلام الذي هو منسوب إليه»[(٣)].

---

(١) أخــرجها النسائي في المجتبى، كتاب الزينة، باب من السنن الفطرة ١٢٨/٨، وفي الكبرى، كتاب الزيــنة، بــاب الفطرة ٤٠٥/٥، والبيهقي في الكبرى، كتاب الطهارة، باب السنة في الأخذ من الأظفار ١٤٩/١.

(٢) أخــرجه الــبخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب إذا لم يتم السجود ١٥٢/١، وفي كتاب الأذان والجماعة، باب إذا لم يتم الركوع ٢٧٣/١، وفي باب إذا لم يتم السجود ٢٧٩/١.

(٣) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٤٥٧/٣.

ثامناً: « أن الرسول ـ ﷺ ـ كان يُغير إذا طلع الفجر وكان يستمع الأذان فإن سمع أذاناً أمسك وإلا أغار، فسمع رجلاً يقول: الله أكبر، الله أكبر، فقال: رسول الله ـ ﷺ ـ على الفطرة » .

أي على الإسلام، لأن الأذان من شعائر الإسلام.

تاسعاً: قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **(لا تزال أمتي بخير أو قال على الفطرة ما لم يؤخروا المغرب إلى أن تشتبك النجوم)**.

وقوله: على الفطرة أي السنة.

عاشراً: الأحاديث التي تبين أن الناس فطروا على معرفة الحق ومحبة الخير وأن ذلك عادة فيهم وأن التحول عنه لا يكون إلا لشبهة أو غفلة ومن هذه الأحاديث:

حديث «الخير عادة والشر لجاجة»[1] وقد أشار الرسول ـ ﷺ ـ إلى هذه القضية ودورها في تمييز الخير من الشر والحق من الباطل والحلال من الحرام، وخصوصاً في مواطن الشبهات فقال لوابصة بن معبد: (**جئت تسأل عن البر**؟ قال: نعم فقال رسول الله: **استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس... واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك**)[2].

---

(١) أخرجه بن ماجة في مقدمة سننه، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ٨٠/١، وابن حبان في صحيحه، كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها، ذكر الإخبار عما يجب على المرء من تعود نفسه أعمال الخير في أسبابه ٨/١، والطبراني في الكبير برقم ٩٠٤، و٨٧٥٥ و ٩١٥٥، و٩١٥٦، والطبراني في مسند الشاميين ١١٠٦، والقضاعي في مسند الشهاب رقم ٢٢، والبيهقي في السنن الكبرى. جماع أبواب صلاة الإمام قاعداً بقيام، باب ما على الآباء والأمهات من تعليم الصبيان أمر الطهارة والصلاة ٨٤/٣.

(٢) أخرجه من طريق وابصة بن معبد -رضي الله عنه- أحمد في مسنده برقم ١٨٠٢٨،والدارمي في=

ولاشك أن الفطرة التي تقود المرء إلى تمييز الخير من الشر والحق من الباطل و الحلال من الحرام لا تكون إلا الفطرة المقتضية للإسلام الحنيف، وقد جعل الرسول ﷺ سلامة هذه الفطرة وبقائها على الإسلام الحنيف أساساً لصلاح سائر الجسد فقال: (**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**) [١].

إحدى عشر: قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[٢] ووجه دلالة هذه الآية التنبيه على أن التوحيد والهدى والصلاح هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها حين خلقهم كما دلت عليه آية: « ألست بربكم » وأنها ماغشاها إلا تلقين الضلال وترويج الباطل وأن الله بعث النبيين لإصلاح الفطرة إصلاحاً جزئياً فكان هديهم مختلف الأساليب على حسب اختلاف المصالح والأهلية وشدة الشكائم [٣].

ثاني عشر: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[٤].

فهذا الإشهاد المذكور في هذه الآية من لوازم الإنسان فكل إنسان قد جعله الله مقراً بربوبيته شاهداً على نفسه بأنه مخلوق والله خالقه. ثم قال في الآية: «أن تقولوا » أي كراهة أن تقولوا إنّا كنا عن هذا غافلين: عن الإقرار

=سننه، كتاب البيوع، باب دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ٢/٣٢٠، والطبراني في الكبير رقم ٤٠٢ و ٤٠٣، وله طرق أخرى عن النواس بن سمعان -رضي الله عنه-.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ١/٢٨، ومسلم في صحيحه ، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٣/١٢١٩، حديث رقم ١٥٩٩.

(٢) البقرة: ٢١٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور: ٢/٣٠٠ - ٣٠١.

(٤) الأعراف: ١٧٢.

بالربوبية وعلى نفوسنا بالعبودية ثم قال في الآية : « أو تقولوا » أي لئلا تقولوا نحن معذورون وآباؤنا هم الذين أشركوا ونحن كنّا ذرية لهم بعدهم اتبعناهم بموجب الطبيعة المعتادة من اتباع الأبناء للآباء و لم يكن عندنا ما يبين خطأهم. فإذا كان في فطرتهم ما شهدوا به من أن الله وحده ربهم كان معهم ما يبين بطلان هذا الشرك وهو التوحيد الذي شهدوا به على أنفسهم، فإذا احتجوا بالعادة الطبيعية من اتباع الآباء، كانت الحجة عليهم الفطرة الطبيعية العقلية السابقة لهذه العادة الأبوية [1].

ثالث عشر : الأحاديث والآثار الدالة على أن الله أشهد الناس على أنفسهم بالإسلام والتوحيد ومنها:

حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: **(يقول الله لأهون أهل النار عذاباً، لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به؟ قال: نعم. قال: فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم، ألا تشرك بي، فأبيت إلا الشرك)** وقد وردت أحاديث أخرى تفصل كيفية هذا الميثاق ليس هذا مقام ذكرها[2]. إلا أن وجه دلالتها جميعاً على أن الفطرة هي الإسلام هي أن هذا الإشهاد على معرفة الله وتوحيده جعل هذه المعرفة والتوحيد علماً ضرورياً لابد من تحققه في كل أحد، فلا يحتاج في معرفته إلى النظر والاستدلال، بل هو فطري ضروري في كل أحد، وهذا هو مقتضى القول بأن الفطرة هي الإسلام.

رابع عشر: « أن الحنيفية التي هي دين الله ولا دين لله غيرها إما أن تكون مع غيرها من الأديان متماثلين أو الحنيفية أرجح أو تكون مرجوحة والأول

---

(١) انظر: الدرء لابن تيمية: ٨/٤٨٨ - ٤٩١.

(٢) سيأتي هذا التفصيل إن شاء الله في الباب الثالث ص ٥٠٣.

والثالث باطلان قطعاً، فوجب أن يكون في الفطرة مرجح يرجح الحنيفية. وامتنع أن يكون نسبتها ونسبة غيرها من الأديان إلى الفطرة سواء »[١].

خامس عشر: ومن الأدلة على أن الفطرة هي الإسلام، أنه يمتنع أن يفطر على تأليه غير الله تعالى وذلك لعدة وجوه منها:

١ــ أن هذا خلاف الواقع.

٢ــ أنه ليس هذا المخلوق، بأن يكون إلهاً لكل الخلق بأولى من هذا.

٣ــ أن المشركين لم يتفقوا على إله واحد، بل عبد كل قوم ما استحسنوه.

٤ــ أن ذلك المخلوق إن كان ميتاً الحي أكمل منه، وإن كان حياً فله إله يألهه، فلو كان هذا يأله هذا، وهذا يأله هذا للزم الدور الممتنع.

فإذا قال قائل: لم لا يجوز أن يكون مطلوب النفس مطلق المألوه لا مألوهاً معيناً وجنس المراد لا مراداً معيناً.

يقال له: هذا ممتنع، فإن ا لمراد إما أن يراد لنوعه أو لعينه، فالمراد لنوعه إذا حصل عين منه حصل مقصود المريد، أما المراد لذاته فلا يكون نوعاً، لأن أحد المعنيين ليس هو الآخر، فلو كان هذا مراداً لذاته للزم أن لا يكون الآخر مراداً لذاته. وإذا لم يكن مراداً لذاته لزم أن يكون ما يختص به كل منهما ليس مراداً لذاته، فتبين أنه لابد من إله معين هو المحبوب لذاته من كل حي، ومن الممتنع أن يكون هذا غير الله، فلزم أن يكون هو الله[٢].

سادس عشر: أن عبادة الله وحده بما يحبه إما أن تكون أكمل للناس علماً وقصداً أو الإشراك به أكمل. والثاني معلوم الفساد بالضرورة، فتعين الأول، وهو أن يكون في الفطرة مقتض يقتضي توحيده وتألهه وتعظيمه[٣].

---

(١) شفاء العليل لابن القيم: ٥١٧.

(٢) انظر: الدرء لابن تيمية: ٨/٤٦٥ - ٤٦٧، وشفاء العليل لابن القيم: ٥١٩.

(٣) انظر: شفاء العليل لابن القيم: ٥١٦.

القائلون بأن الفطرة هي الإسلام:

القول بأن المراد بالفطرة الإسلام هو الذي عليه أكثر الصحابة والتابعين وغيرهم من علماء السلف ومن هؤلاء الصحابة والعلماء:

معاذ بن جبل وعمر بن الخطاب وأبي هريرة وابن عباس والقاضي شريح وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي ومجاهد وعكرمة والضحاك والحسن البصري والباقر وقتادة وابن شهاب وجعفر الصادق والأوزاعي وحماد بن زيد [١] وأبي عبيد[٢] وأحمد بن حنبل والبخاري[٣] وابن جرير وأبوبكر الخلال وأصحاب أبي حنيفة وأهل الثغر[٤] وابن حزم[٥] والبيهقي[٦] وابن تيمية[٧] والكلبي[٨] وابن القيم[٩]

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير ١٠/١٨٣ - ١٨٤، والدرء لابن تيمية ٨/٣٦٧ - ٣٧٧، والتمهيد لابن عبدالبر ١٨/٧٢، وأحكام أهل الملل للخلال ١٤ - ١٥، والنكت والعيون للماوردي ٤/ ٣١٢، وصحيح البخاري كتاب الجنائز ١/٤٥٤، والمصادر العامة للتلقي عند الصوفية لصادق ١٥١-١٥٢.

(٢) انظر: منهج أبي عبيد للراجح: ٢٠٤ - ٢٠٦.

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ١/٤٥٤، وكتاب التفسير/ سورة الروم، باب لا تبديل لخلق الله ٤/١٧٩٢، تفسير ابن جرير ١٠/ ١٨٣-١٨٤، والدرء لابن تيمية ٨/٣٦٧-٣٧٧، وأحكام أهل الملل للخلال ١٤-٢٥.

(٤) الثغر: هو كل موضع قريب من أرض العدو مأخوذ من الثغرة وهي الفرجة في الحائط يخاف دخول السارق ونحوه منها والمراد بأهل الثغر هنا علماءه. ولا أعلم هل يقصد ثغراً بعينه أولا.

انظر: معجم البلدان للحموي ٢/٧٩، والمطلع على أبواب المقنع للبعلي ٩٧، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي٢٢٠.

(٥) انظر: الإحكام لابن حزم ٥/١٠٤.

(٦) انظر: الاعتقاد للبيهقي ١٠٧.

(٧) انظر: مؤلفاته -رحمه الله- كالدرء ٨/٣٥٩ - ٤٦٨، ومجموع الفتاوى ٤/٢٤٣ - ٢٤٩، ومجموعة الرسائل الكبرى ٢/٣٣٣ - ٣٤٩ وغيرها.

(٨) انظر: النكت والعيون للماوردي ٤/٣١٢، والتسهيل لعلوم التنزيل للكلبي ٣/٢٦٥ - ٢٦٦.

(٩) انظر: مؤلفاته -رحمه الله- كشفاء العليل ٤٨٦ - ٥٢٠، وأحكام أهل الذمة ٢/٥٢٣ - ٦٠٩ وغيرها.

وابن كثير[١] وابن حجر[٢] وسليمان الجمل[٣] والشوكاني[٤] وغيرهم.

المراد بالقول أن الفطرة هي الإسلام:

بعد أن تقرر أن المراد بالفطرة الإسلام، فلابد من تحرير المراد به، خصوصاً وأن الإسلام يطلق على معانٍ عدة: فقد يطلق على توحيد الربوبية ـ أي الإقرار بالصانع سبحانه ـ، أو على الإسلام الذي هو دين جميع الرسل بمعنى أصول الدين المشتركة بين جميع الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، أو على الإسلام بمعناه الخاص الذي يطلق على دين نبينا محمد ـ ﷺ ـ.

فأي هذه المعاني مراداً عندما يقال الفطرة هي الإسلام؟

وللإجابة عن هذا السؤال تأملت أقوال من فسّر الفطرة بالإسلام فوجدهم يجعلون لهذا التفسير عدة ضوابط ـ إن صح التعبير ـ ومنها:

١ـ أنه ليس المراد بقولنا ولد المولود على فطرة الإسلام، أنه حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾[٥] ولكن فطرته مقتضية موجبة لدين الإسلام، لمعرفته ومحبته.

فنفس فطرة المولود تستلزم الإقرار بالخالق ومحبته وإخلاص الدين له ، وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئاً بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٦/٣٢٠ - ٣٢٣.

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر ٣/٢٩٤.

(٣) انظر: الفتوحات الإلهية للعجيلي ٣/٣٩١.

(٤) انظر: فتح القدير للشوكاني ٤/٢٢٤.

(٥) النحل: ٧٨.

سلمت عن المعارض[١].

٢ ــ أن القــول بأن المولود فُطر على الإسلام، أو على الإقرار بالصانع ــ وإن لم يكــن ذلك وحده إيماناً ــ ، أو على المعرفة الأولى يوم أخذ الميثاق عليهم، يحصل به المقصود، فهذه الثلاثة لا منافاة بينها.

والكــتاب والســنة دلاّ على ما اتفقت عليه هذه الثلاثة من كون الخلق مفطورين على دين الله، الذي هو معرفة الله والإقرار به، بمعنى أن ذلك موجب فطرتهم ومقتضاها، إذا سلمت من المغيّر[٢].

٣ ــ أن الفطــرة التي فطر الله الخلق عليها يوم قال لهم: « ألست بربكم؟ قالوا : بلى » تعني السلامة من الاعتقادات الباطلة، والقبول للعقائد الصحيحة، لأن حقيقة « الإسلام » أن يستسلم المرء لله، لا لغيره، وهو معنى لا إله إلا الله.

وهــذه السلامة تعني أن المولود لو تُرك من غير مغيّر لما كان إلا مسلماً، وهذه القوة العلمية العملية التي تقتضي بذاتها الإسلام ما لم يمنعها مانع هي فطرة الله التي فطر الناس عليها[٣].

٤ ــ أن مقابلــة الفطرة في الحديث باليهودية والنصرانية والمجوسية دليلٌ عــلى أن المراد بها أكثر من مجرد التوحيد الذي هو المسائل الاعتقادية، إذ لو كانــت هــي المرادة فقط لقابل الفطرة بالشرك، لأن هذه الديانات في أصلها توحيد[٤].

---

(١) انظر: الدرء لابن تيمية ٣٨٣/٨ - ٣٨٤، ٤٦٠ - ٤٦١.

(٢) انظر: المصدر السابق ٤٥٤/٨.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٤٥/٤ - ٢٤٧.

(٤) انظر: الفطرة ووظائفها لفرج ٤٥.

٥ ــ أن تفسير الفطرة بالإسلام لا يعني أن الإسلام لا يشتمل إلا على ما تشهد به الفطرة بل المقصود أن الأصول التي في الإسلام هي من الفطرة وتتبعها أصول وتفريعات هي من المقبول لدى الفطرة [١].

٦ ــ تفسير الفطرة بالإسلام الذي جاء به سائر الأنبياء والرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ يقصد به الأصول العقدية المشتركة بينهم جميعاً، فقد جاء كلُ واحد منهم في هذا الأمر مصدقاً لمن قبله، قال تعالى: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾[٢] إلى أن جاء القرآن الكريم فصدّق وهيمن على ما قبله قال تعالى: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[٣].

أما شرائع الأنبياء السابقين فغير داخلة في هذا، لأن لكل نبي شريعته الخاصة قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[٤]، أما شريعة نبينا محمد ــ ﷺ ــ. فهي فَطرية بمعنى أنها لا تعارض الفطرة البشرية بل تكملها وترقى بها، ومما يؤيد فطريتها أنها عامة لسائر البشر، ولا يمكن أن يكون هناك شيء صالح للبشر عامة حتى يكون ملائماً لفطرتهم، كما أنها غير قابلة للتغيير والتبديل بل صالحة لكل زمان ومكان[٥].

وبهذه الأمور يتبين أن الفطرة التي هي الإسلام تشمل معاني الإسلام الثلاثة السابقة. غير أنها لا تقتصر فطرة المولود على المعنيين الأولين وهما التوحيد والأصول العقدية المشتركة بين الرسل بل تتعدى ذلك إلى كل ما جاء به دين

---

(١) انظر: المصدر السابق ٤٦.

(٢) المائدة: ٤٦.

(٣) المائدة: ٤٨.

(٤) المائدة: ٤٨.

(٥) انظر: العقيدة من خلال الفطرة لجوادي: ١٠٠ - ١٠٢.

نبيـــنا محمد ـــ ﷺ ـــ فهي تقتضيه وتوجبه إذا سلمت من المُغيّر المعارض. لأن مهمـــة الفطـــرة أوســـع من مجرد المعرفة والتسليم فهي تشمل الشعور والمحبة، والقدرة على التمييز والتوجيه.

ومع هذا فلو قلنا أن الفطرة تعني الإسلام الذي جاء به نبينا محمد ـــ ﷺ ـــ لكان هذا القول صحيحاً، لأن دينه ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ يتضمن المعنيين الســـابقين ويزيد عليهما. قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ رحمه الله ـــ: « وأما القـــرآن فإنه مستقل بنفسه لم يحوج أصحابه إلى كتاب آخر، بل اشتمل على جميع ما في الكتب من المحاسن، وعلى زيادات كثيرة لاتوجد في الكتب، فلهذا كان مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، يقرر ما فيها من الحق ويبطل مـــا حُـــرّف منها وينسخ ما نسخه الله، فيقرر الدين الحق وهو جمهور ما فيها، ويبطل الدين المبدل الذي لم يكن فيها، والقليل الذي نسخ فيها، فإن المنسوخ قليل جداً بالنسة إلى المحكم المقرر »[١].

٧ ـــ القـــول بـــأن الفطرة هي الإسلام لا يعني أن الفطرة تغني الناس عن إرســـال الرسل وإنزال الكتب، لأن الوحي يختص بمسائل ومعارف ليس للفطرة فيها مجال وذلك كمسائل الاعتقاد الغيبية وما يتعلق بالشعائر التعبدية ونحوها[٢].

هل الفطرة عامة أم خاصة؟:

اخـــتلف القائلون بأن الفطرة هي الإسلام، هل هي عامة لكل بني آدم أم هي خاصة بالمسلمين منهم فقط. و هذه أقوالهم:

١ـــ القول الأول:

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٨٤/١٩ - ١٨٥.

(٢) انظر: المعرفة في الإسلام للقرني: ٢٨٩ - ٢٩١.

أن الفطرة خاصة بالمسلمين من بني آدم فقط، وليس المراد من قوله تعالى: ﴿ فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾، ولا من قوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ: (**كل مولود يولد على الفطرة**) العموم. بل «معناه أن كل من ولد على الفطرة وكان له أبوان على غير الإسلام هوداه أو نصراه ، قالوا : وليس معناه أن جميع المولودين من بني آدم أجمعين يولدون على الفطرة بين الأبوين الكافرين وكذلك من لم يولد على الفطرة وكان أبواه مؤمنين حكم له بحكمهما في صغره وإن كانا يهوديين فهو يهودي ويرثهما ويرثانه وكذلك إن كانا نصرانيين أو مجوسيين حتى يعبر عنه لسانه ويبلغ الحنث فيكون له حكم نفسه حينئذ لا حكم أبويه»[(١)].

واحتج أصحاب هذا القول بما يلي[(٢)]:

١ ــ أن الله أخرج الذرية من صلب آدم سوداً وبيضاً.

٢ ــ أن الرسول ﷺ قال في الغلام الذي قتله الخضر : (**طبع يوم طبع كافراً**).

٣ ــ أن الله خلق أقواماً للنار، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾[(٣)].

٤ ــ حديث أبي سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ قال: (صلى بنا رسول الله ــ ﷺ ــ العصر بنهار ــ إلى أن قال ــ **ومنهم من يولد كافراً ويحي كافراً ويموت كافراً**... الحديث).

---

(١) عمدة القاري للعيني: ١٧٨/٧، انظر: التمهيد لابن عبدالبر: ٥٩/١٨-٦٠.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٦/١٤-٢٧، و التمهيد لابن عبدالبر ٦٠/١٨-٦٣.

(٣) الأعراف: ١٧٩.

٥ ــ قالوا بأن بني آدم جميعاً لو فطروا على الإسلام لما كفر أحد.

٦ ــ أجابوا عن عموم حديث (**كل بني آدم يولد على الفطرة**) بأنه غير صحيح، ولو صح فليس فيه حجة، لجواز الخصوص، وهذا كثير في لسان العرب ومنه قوله تعالى: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[١] ولم تدمر السموات والأرض، وقوله تعالى: ﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[٢] ولم تفتح عليهم أبواب الرحمة.

٧ ــ قالوا بأن الكلام تمّ عند قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ ثم قال: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ ﴾ أي فطر الله الخلق فطرة إما بجنة أو نار وإليه أشار النبي ﷺ في قوله: (**كل مولود يولد على الفطرة**).

٢ــ القول الثاني.

أن الفطرة عامة لكل مولود من بني آدم، (**فكل مولود من بني آدم فهو يولد على الفطرة أبداً وأبواه يحكم له بحكمهما ــ وإن كان قد ولد على الفطرة ــ حتى يكون ممن يعبر عنه لسانه**)[٣] واستدلوا بما يلي:

١ ــ روايات حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ ومنها رواية : (**كل بني آدم يولد على الفطرة**) ورواية: (**ما من مولود إلا يولد على الفطرة**). وقالوا: حق الكلام أن يحمل على عمومه.

---

(١) الأحقاف: ٢٥.

(٢) الأنعام: ٤٤.

(٣) التمهيد لابن عبدالبر: ١٨/٦٣ - ٦٦.

٢ ــ حديث سمرة بن جندب ــ رضي الله عنه ــ في الرؤيا وفيه : «والشيخ الذي في أصل الشجرة إبراهيم، والولدان حوله أولاد الناس » [١]. وفي لفظ: (**وأما الولدان حوله فكل مولود ولد على الفطرة**، قال فقال بعض المسلمين يا رسول الله وأولاد المشركين قال رسول الله ﷺ ــ **وأولاد المشركين**) [٢]. قالوا: فهذه الأحاديث تفيد ألفاظها أن جميع أولاد الناس يولدون على الفطرة. قال الشوكاني: « والأولى حمل الناس على العموم من غير فرق بين مسلمهم وكافرهم، وأنهم جميعاً مفطورون على ذلك لولا عوارض تعرض لهم فينتقلون بسببها إلى الكفر(*)، كما في حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح قال: قال رسول الله ﷺ ــ: (**ما من مولود إلا يولد على الفطرة..**) ... فكل فرد من أفراد الناس مفطور: أي مخلوق على ملة الإسلام، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيان، وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم، وقول جماعة من المفسرين وهو الحق »[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين ١/٤٦٥، ومسلم في صحيحه مختصراً، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي -ﷺ- ٤/١٧٨١، حديث رقم ٢٢٧٥.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب الخوف والتقوى، ذكر ما يجب على المرء من مجانبة أفعال يتوقع لمرتكبها العقوبة في العقبى ٢/٤٢٧.

(*) في فتح القدير (فيبقون بسببها على الكفر) ولعل الصحيح ما أثبته أعلاه، لأن الفطرة هي الأصل المنتقل منه، وا لكفر هو المنتقل إليه، والله أعلم.

(٣) فتح القدير للشوكاني: ٤/٢٢٤.

وهذا القول الثاني هو أصح[١] القولين. وقد أجاب أصحابه على أدلة القول الأول بما يلي[٢]:

١ــ حديث أبي سعيد الخدري ــ رضي الله عنه ــ يجاب عنه بما يلي:

أ ــ في سنده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف[٣]، ويكفي في الرد على هذا الحديث روايات حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ المتقدمة (**كل مولود يولد على الفطرة**) [٤].

ب ــ أنه لا يعارض دعوى العموم، لأن الأقسام الأربعة راجعة إلى علم الله تعالى، فإنه قد يولد الولد بين مؤمنين، والعياذ بالله يكون قد سبق في علمه تعالى غير ذلك. وكذا من ولد بين كافرين، وإلى هذا يرجع غلام الخضر ــ عليه الصلاة والسلام ــ[٥].

٢ــ قال ابن القيم ــ رحمه الله ــ بعد أن ذكر ألفاظ حديث الفطرة التي في الصحيحين: « وإنما سقنا هذه الألفاظ لنبين بها أن الكلام جملتان، لا جملة واحدة، وأن قوله: (**كل مولود يولد على الفطرة**) جملة مستقلة، وقوله: (**أبواه يهودانه .. إلى آخر**) جملة أخرى.

---

(١) انظر: تسهيل السبيل للبكري ٤٤١/١.

(٢) يمكن أن يجاب على أصحاب هذا القول بما سبق أن أجيب به على من فسر الفطرة بالبداءة، انظر: ص ٩١-١٠٦ فهناك الإجابة مفصلة.

(٣) انظر: ص ١٠١ من هذا البحث.

(٤) انظر: ص ١٣٩.

(٥) انظر: عمدة القاري للعيني: ١٧٨/٧

وهـــو يبين غلط من زعم أن الكلام جملة واحدة وأن المعنى : كل مولود يولـــد بهـــذه الصفة فأبواه يهودانه وجعل الخبر عند قوله: (يهودانه إلى آخره). وألفاظ الحديث تدل على خطأ هذا القائل » [1].

(١) تهذيب سنن أبي داود لابن القيم: ٤٨٥/١٢.

المطلب الثاني

مناقشة الاعتراضات على أن حقيقة الفطرة هي الإسلام

ما سبق ذكره من أدلة أصحاب الأقوال المرجوحة هو في حقيقته اعتراضات على القول الراجح وهو أن الفطرة هي الإسلام، وبعض هذه الاعتراضات مشترك بين سائر الأقوال وبعضها غير مشترك، وسأذكر هنا أبرز تلك الاعتراضات إجمالاً.

وأناقش ما لم يناقش منها سابقاً، وأحيل على موضع المناقش منها.

ومن هذه الاعتراضات:

١ ـ الاعتراض بمعنى الفطرة في اللغة، كقولهم: « أن الفطرة هي ابتداء الخلقة ومنه قوله تعالى: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مبتدئها، وإذا كانت الفطرة هي الابتداء، وجب أن تكون تلك هي التي وقعت لأول الخلق، وجرت في فطرة العقول، وهو استخراجهم ذريةً لأن تلك حالة ابتدائهم » [(١)].

وهذا الاعتراض سبقت الإجابة عليه مفصلة [(٢)].

٢ـ قالوا: « لو كانت الفطرة هي الإسلام لوجب إذا ولد من بين أبوين

---

(١) الدرء لابن تيمية: ٣٥٩/٨.

(٢) انظر: هذا البحث ص ٦٨، ٧٨، ٩٧ فيها الرد على من اعتمد على المعنى اللغوي للفطرة.

كافرين ألا يرثهما ولا يرثانه، ما دام طفلاً لأنه مسلم، واختلاف الدين يمنع الإرث، ولوجب ألا يصح استرقاقه ولا يصح إسلامه بإسلام أبيه لأنه مسلم»[١].

وهذا الاعتراض ناتج عن الخلط بين أحكام الدنيا وأحكام الآخرة، فحديث الفطرة لم يأت لبيان أحكام الدنيا، وإنما ورد لبيان ما ولد عليه الأطفال من الفطرة[٢].

وقد بين أهل العلم أن أطفال المشركين يعاملون في الدنيا تبعاً لآبائهم حسب الظاهر « وهذا موضع اتفاق بين علماء الأمة حيث ثبت ذلك في عهده وتواتر من فعله ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذ لم يثبت أنه ـ ﷺ ـ منع معاملة ذراري المشركين من أهل الذمة والمعاهدين والحلفاء معاملة الكفار ، فلم يثبت أنه ـ ﷺ ـ صلى على أحد من أولاد الكفار، ولم يأمر بغسلهم ودفنهم في مقابر المسلمين، كما لم يمنع ـ عليه الصلاة والسلام ـ من استرقاقهم وإرثهم إذا ماتوا نظراً لكونهم على فطرة الإسلام، وعلى هذا انعقد الإجماع من بعده ـ عليه الصلاة والسلام ـ فلم يخالف في ذلك أحدٌ من أهل العلم ، ولكن لا يعني ذلك أن هؤلاء الأطفال ليسوا على فطرة الإسلام وأنهم كفار، إذ لا منافاة بين إثبات فطرة الإسلام لهم في حقيقة الأمر وبين معاملتهم معاملة الكفار تبعاً للوالدين في الدنيا حسب الظاهر »[٣]. ومسألة أطفال المشركين فيها تفصيل ليس هذا موضعه[٤].

---

(١) الدرء لابن تيمية: ٣٥٩/٨ - ٣٦٠.

(٢) انظر: هذا البحث ص ٦٨ و ١٢١ـ ١٢٢.

(٣) الإبانة لابن بطة: [كتاب القدر]: ٧٧/٢ - ٧٨ [حاشية].

(٤) من الكتب التي تناولت هذه المسألة: أحكام أهل الذمة لابن القيم ٦١٩/٢ - ٦٥٦، وطريق الهجرتين له أيضاً ٣٩٦ - ٤١٣، وأهل الفترة ومن في حكمهم لموفق شكري ٨٩ - ١٠١ وغيرها.

٣ ــ القــول بأن الفطرة هي الإسلام يمنع أن يكون الكفر خلقاً لله، وقد ثبــت مــن أصــول أهل السنة والجماعة أن أفعال العباد خلق لله من طاعة ومعصية[١].

وهذا الاعتراض تقرير لمذهب القدرية الذين يقولون بأن الله لا يقضي ولا يقــدر المعاصي على العباد، ولكن العباد هم ا لذين يحدثون الكفر والمعاصي من قبلهم دون إرادة الله السابقة وعلمه الأزلي.

وقــد ســبق بيان أن هذا الاعتراض من أسباب اختلاف العلماء في معنى الفطرة[٢].

وسيأتي في الباب الثاني مذهب القدرية والرد عليه ــ إن شاء الله تعالى ــ.

٤ ــ يستحيل أن تكون الفطرة هي الإسلام، لأن الإسلام والإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح وهذا معدوم من الطفل، لا يجهل ذلك ذو عقل[٣].

وقد سبقت الإجابة مفصلة على هذا الاعتراض في المبحث الأول من هذا الباب[٤].

٥ ــ الاعــتراض بالآيــات والأحاديــث الدالة على الشقاوة والسعادة والكفر والإيمان، كحديث الغلام الذي قتله الخضر، والشقي من شقي في بطن

---

(١) انظر: الدرء لابن تيمية ٨/٣٦٠.

(٢) انظر: هذا البحث ص ٦٧.

(٣) انظر: التمهيد لابن عبدالبر ١٨/٧٧.

(٤) انظر: هذا البحث ص ٧٩-٨٣.

أمه وغيرها، وقد سبقت الاجابة عليها أيضاً[١].

٦ ــ حديث أبي ذر ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ــ ﷺ ــ فيما يرويه عن ربه ــ عز وجل ــ أنه قال: (**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم**... الحديث)[٢].

قالوا: كيف تكون الفطرة هي الإسلام، والله يقول كلكم ضال إلا من هديته.

ويجاب عن هذا الحديث بما سبق في حديث ابن مسعود[٣] وغيره من المباحث السابقة ويضاف إلى ذلك ما يلي:

أ ــ أن المراد بالضلالة المذكورة في الحديث ما كانوا عليه قبل بعثة النبي ــ ﷺ ــ من الضلالة لا أنهم خلقوا في الضلالة.

ب ــ أن المراد بالضلالة في الحديث الجهل بتفاصيل أحكام الإيمان وحدود الإسلام، والقول بأنه ولد على الفطرة لا يعني أنه يعلم تفاصيل الدين ــ كما سبق بيانه [٤] ــ قال ابن رجب ــ رحمه الله ــ: « لابد للعبد من تعليم الإسلام بالفعل، فإنه قبل التعليم جاهل لا يعلم شيئاً، كما قال ــ عز وجل ــ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾[٥]، وقال لنبيه ــ ﷺ ــ: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾[٦]، والمراد : وجدك غير عالمٍ بما علّمك من

---

(١) انظر: هذا البحث ص ٩١-١٠٦ و ١١٨-١٢٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم ١٩٩٤/٤، حديث رقم ٢٥٧٧.

(٣) انظر: ص ٩٢-١٠٦ من هذا البحث.

(٤) انظر: هذا البحث ص ٨٠-٨٣.

(٥) النحل: ٧٨.

(٦) الضحى: ٦.

الكتاب والحكمة، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[١] فالإنسان يولد مفطوراً على قبول الحق، فإن هداه الله سبّب له من يعلمه الهدى، فصار مهتدياً بالفعل بعد أن كان مهتدياً بالقوة[٢]، وإن خذله الله قيّض له من يعلمه ما يغير فطرته كما قال ﷺ: (**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه...**)»[٣] وقد يكون المراد بالضلال الوارد في الحديث (**أنهم لو تُركوا وما في طباعهم من إيثار الشهوات والراحة وإهمال النظر لضلوا**)[٤].

٧ ــ قالوا: لو كانت الفطرة على الإسلام عند كل أحدٍ، لما وجد من ينكرها من أهل الكلام وغيرهم.

ويجاب عن هذا الاعتراض بما يلي[٥]:

أ ــ أن أول من عُرف في الإسلام بإنكار هذه المعرفة هم أهل الكلام ــ من الجهمية والقدرية ــ الذين اتفق السلف على ذمهم، وهم عند سلف الأمة من أضل الطوائف وأجهلهم.

ب ــ أن الإنسان قد يقوم بنفسه من العلوم والإرادات وغيرها من الصفات ما لا يعلم أنه قائم بنفسه، فإن قيام الصفة بالنفس غير شعور صاحبها بأنها قامت به، فوجود الشيء في الإنسان وغيره، غير علم الإنسان به.

---

(١) الشورى: ٥٢.

(٢) القوة: هي كون الشيء مستعداً لأن يوجد و لم يوجد،ويقابلها الفعل وهو كون الشيء خارجاً من الاستعداد إلى الوجود.

انظر: الكليات للكوفي ص ٧١٧.

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب ٢/٣٩ - ٤٠.

(٤) شرح النووي علىمسلم ١٦/١٣٢، والديباج للسيوطي ٥/٥١٧.

(٥) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٦/٣٤٠ - ٣٤٨.

والـــذي يـــبين ذلك أن الأفعال الاختيارية التي لا تتصور إلا بإرادة تقوم بـــنفس الإنسان، وكل من فعل فعلاً اختيارياً وهو يعرفه فلابد أن يريده، كنية الوضـــوء للصلاة، فكثير من الناس يستدعون النية بألفاظ يقولونها ظناً منهم أن النـــية لم تكن في قلوبهم فطلبوا حصولها مع علمهم أن التلفظ بها ليس بواجب وإنمـــا الفـــرض وجود الإرادة في القلب وهي موجودة، ومع هذا يعتقدون أنها ليست موجودة. وإذا قيل لأحدهم « النية حاصلة في قلبك » لم يقبل لما قام به من الاعتقاد الفاسد المناقض لفطرته.

وكذلك حب الله ورسوله موجود في قلب كل مؤمن، لا يمكنه دفع ذلك من قلبه إذا كان مؤمناً، ومع هذا فكثير من أهل الكلام والرأي أنكروا محبة الله، وقـــالوا: يمتنع أن يكون محباً أو محبوباً، وقالوا: خلافاً للحلولية. وكأن ذلك لم يقلـــه إلا الحلولـــية، مع أنه دين الأنبياء والرسل، وقد دل عليه الكتاب والسنة وهـــذه المحبة في قلب كل مؤمن وإن أنكرها لشبهة عرضت له، وهكذا الفطرة. فهـــؤلاء الذيـــن أنكروا الفطرة هم الذين أنكروا المحبة، وقد يكون هذا الإنكار سبباً لزوال فطرتهم، وقد تكون موجودة ولا ترى.

قـــال شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ رحمه الله ـــ: « وأهل البدع ـــ الجهمية ونحوهـــم ـــ لمـــا أعرضـــوا عن ذكر الله الذكر المشروع الذي كان في الفطرة وجـــاءت به الشرعة، ـــ الذي يتضمن معرفته ومحبته وتوحيده ـــ نسوا الله من هـــذا الوجـــه، فأنساهم أنفسهم من هذا الوجه، فنسوا ما كان في أنفسهم من العلم الفطري، والمحبة الفطرية والتوحيد الفطري » [1].

٨ ـــ ومـــن الاعتراضات قولهم: أن الأطفال لو فطروا على الإسلام في

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٦/ ٣٥٠.

أولية أمرهم ما انتقلوا عنه أبداً، وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون.

وهذا الاعتراض سبقت الإجابة عليه أيضاً [١].

وهذه الاعتراضات الثمانية أشهر الاعتراضات على هذه الحقيقة التي قررتها في المطلب السابق.

---

(١) انظر: هذا البحث ص ٨٠.

❖ أقوال أخرى في الفطرة[١]:

هـــذه الأقوال أفردها بعض أهل العلم بالذكر حين عدّ الأقوال في حقيقة الفطـــرة، لـــذا سأذكرها هنا مجتمعة مع أن بعضها ضعيف جداً بل وبعيد عن المراد ولكن إتماماً للفائدة سأذكرها وأجيب عليها باختصار:

القول الأول:

قـــال ابـــن عبدالبر ـــ رحمه الله ـــ: « وقال آخرون الفطرة ما يقلب الله قلـــوب الخلـــق إليه مما يريد ويشاء فقد يكفر العبد ثم يؤمن فيموت مؤمناً وقد يؤمـــن ثم يكفر فيموت كافراً وقد يكفر ثم لا يزال على كفره حتى يموت عليه وقد يكون مؤمناً حتى يموت على الإيمان، وذلك كله تقدير الله وفطرته لهم»[٢].

ثم ذكر ـــ رحمه الله ـــ حجة هؤلاء فقال:

واحـــتجوا بحديث « أبي سعيد الخدري ـــ رضي الله عنه ـــ عن النبي ﷺ أنه قال: **ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات فمنهم من يولد مؤمناً ويحيى مؤمناً ويمـــوت مؤمناً، ومنهم من يولد كافراً ويحيى كافراً ويموت كافراً، ومنهم من يولد كافراً ويحيى كافراً ويموت مؤمناً**... الحديث » .

ويجاب على هذا القول بما يلي:

١ ـــ أن الفطـــرة عـــند هؤلاء هي « ما قضاه الله وقدره لعباده من أول أحوالهـــم إلى آخرها ، كل ذلك عندهم فطرة، وسواء كانت عندهم حالاً بعد حـــال واحدة لا تنتقل، أو حالاً بعد حال، كقوله ـــ عز وجل ـــ: ﴿ لَتَرْكَبُنَّ

---

(١) هذه الأقوال كانت مبحثاً مستقلاً في الخطة، إلا أنه لم يقر من قبل مجلس القسم،ولأهمية الإشارة إليها ـــ في نظري ـــ رأيت أن أذكرها هنا بإيجاز.

(٢) التمهيد لابن عبدالبر: ١٨/٩٣.

طَبَقًا عَن طَبَق﴾ [١] أي حالاً بعد حال على ما سبق لهم في علم الله وهذا القول وإن كان صَحيحاً في الأصل فإنه أضعف الأقاويل من جهة اللغة في معنى الفطرة » [٢].

٢ ــ الحديث الذي احتجوا به ضعيف ــ كما سبق بيان ذلك ــ[٣].

٣ ــ هذا القول في جملته لا يعدوا أن يكون مصيراً من قائليه إلى أن الفطرة هي ما سبق في علم الله تعالى من سعادة العبد وشقاوته، وهذا القول سبقت الإجابة عليه مفصلة[٤].

القول الثاني:

القول بالنسخ وبه قال الإمام محمد بن الحسن ــ رحمه الله ــ حين سئل عن حديث الفطرة فقال: كان هذا في أول الإسلام قبل أن تنزل الفرائض، وقبل أن يؤمر المسلمون بالجهاد. قال أبو عبيد: كأنه يذهب إلى أنه لو كان يولد على الفطرة ثم ما ت قبل أن يهوده أبواه أو ينصراه ما ورثهما ولا ورثاه لأنه مسلم وهما كافران، وكذلك ما كان يجوز أن يسبى، يقول: فلما نزلت الفرائض وجرت السنن بخلاف ذلك علم أنه يولد على دينهما[٥].

الإجابة على هذا القول:

١ــ أن هذا القول بعيد عن المراد من بيان معنى الحديث أو حقيقة الفطرة،

---

(١) الانشقاق: ١٩.

(٢) المصدر السابق: ١٨/٩٤.

(٣) انظر: ص ١٠١ من هذا البحث.

(٤) انظر: ص ٩٢-١٠٦ من هذا البحث.

(٥) انظر: غريب الحديث لأبي عبيد ٢/٢١-٢٢.

حتى قال ابن عبدالبر: « أظن محمد بن الحسن حاد عن الجواب فيه إما لإشكاله عليه أو لجهله به أو لكراهية الخوض في ذلك » [١].

وقال ابن نصر المروزي: « هذا رجل سئل عما لم يحسنه، فلم يدر ما يجيب فيه، وأنف أن يقول: لا أدري، فأجابه عن غير ما سأله عنه، فادعى أنه منسوخ، وإنما سأله أبو عبيد عن تفسير الحديث، ولم يسأله أناسخ هو أو منسوخ فكان الذي يجب عليه أن يفسر الحديث أولاً إن كان يحسن تفسيراً، فيكون قد أجابه عما سأله، ثم يخبر أنه منسوخ » [٢].

٢ ـ قوله بأن هذا الحديث كان في أول الإسلام مردودٌ بأن رواة هذا الخبر عن النبي ـ ﷺ ـ هم « أبوهريرة والأسود بن سريع وسمرة، وكل هؤلاء لم يدرك أول الإسلام: أسلم أبوهريرة قبل وفاة النبي ـ ﷺ ـ بنحو من ثلاث سنين أو أربع، وكذلك الأسود بن سريع، وسمرة لم يدرك أول الإسلام، فقوله « كان هذا في أول الإسلام » باطل » [٣].

٣ ـ قوله بأن هذا الحديث كان قبل أن يؤمر المسلمون بالجهاد قولٌ باطل، لأن ألفاظ حديث الأسود بن سريع نصت على أن ذلك كان في الجهاد حين أفضى القتل بهم إلى قتل الذرية في بعض الغزوات[٤].

---

(١) التمهيد لابن عبدالبر: ١٨/٦٧.

(٢) أحكام أهل الذمة لابن القيم: ٢/٥٩٠. [هذا الكلام من ابن نصر فيه شدة وغلظة مع الإمام محمد بن الحسن وتجهيل له بخلاف كلام ابن تيمية الآتي الذي اعتذر فيه لهذا الإمام وأجاب عن قوله ـ رحم الله الجميع ـ].

(٣) المصدر السابق: ٢/٥٩١ - ٥٩٢.

(٤) انظر: التمهيد لابن عبدالبر ١٨/٦٧ - ٦٧، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ٢/٥٩١، ولفظ الحديث سبق في ص ٥٣ من هذا البحث.

٤ ــ مما يبطل هذا القول أن لفظ الحديث خبر محض وليس حكماً يدخله النسخ [١]، وفي هذا يقول محمد بن نصر المروزي: « ولا يُعلَم أحد يجوّز النسخ في أخبار الله غير صنف من الروافض يصفونه بالبداء ــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ــ فلم يزل الله سبحانه عالماً بما يكون، ومريداً لما علم أنه سيكون لم يستحدث علماً لم يكن و لا إرادة لم تكن، فإذا أخبر عن شيء أنه كائن فغير جائز أن يخبر أبداً عن ذلك الشيء أنه لا يكون، لأنه لم يخبر أنه كائن إلا وقد علم أنه كائن وأراد أن يكون، وهو الفاعل لما يريد العالم بعواقب الأمور، لا تبدو له البدوات، ولا تحل به الحوادث، ولا تعتقبه الزيادة والنقصان، فقول النبي ــ ﷺ ــ : **(كل مولود يولد على الفطرة)** خبر منه عن كل مولود أنه يولد على الفطرة، فغير جائز أن يُخبر أبداً بخلاف ذلك فيقول: إن كل مولود يولد على غير الفطرة » [٢].

وبهذا يتبين خطأ هذا القول وبُعده عن مراد الحديث. ومع هذا فقد اعتذر شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ لصاحبه ووجّه المراد بهذا القول فقال:

« وأما قول محمد، فإنه رأى الشريعة قد استقرت على أن ولد اليهودي والنصراني يتبع أبويه في الدين في أحكام الدنيا، فيحكم له بحكم الكفر في أنه لا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يرثه المسلمون ويجوز استرقاقهم ونحو ذلك فلم يجز لأحد أن يحتج بهذا الحديث على أن حكم الأطفال في الدنيا حكم المؤمنين حتى تعرب عنهم ألسنتهم، وهذا حق. لكن ظن أن الحديث

---

(١) انظر: تهذيب سنن أبي داود لابن القيم: ١٢/٤٨٦.

(٢) أحكام أهل الذمة لابن القيم: ٢/٥٩٠ - ٥٩١.

اقتضى أن يحكم لهم في الدنيا بأحكام المؤمنين، فقال: هذا منسوخ، كان قبل الجهاد لأنه بالجهاد أبيح استرقاق النساء والأطفال، والمؤمن لا يسترق، ولكن كون الطفل يتبع أباه في الدين في الأحكام الدنيوية، أمرٌ ما زال مشروعاً، وما زال الأطفال تبعاً لأبويهم في الأمور الدنيوية، والحديث لم يقصد بيان هذه الأحكام، وإنما قصد ما وُلد عليه من الفطرة » [١].

القول الثالث:

قال ابن حجر: « ومنها قول بعضهم: إن اللام في الفطرة للعهد أي فطرة أبويه » [٢].

ويجاب عنه بما يلي:

١ ــ لو كان الأمر كذلك لم يقتصر في أحوال التبديل على ملل الكفر دون ملة الإسلام.

٢ ــ لو كان الأمر كذلك لم يكن لاستشهاد أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ بالآية معنى [٣].

القول الرابع:

القول بأن الفطرة هي الفقر والفاقة، فالإنسان منذ ولادته إلى حين موته فقير محتاج، بل حتى في الآخرة [٤]. وبه قال أبوبكر الوراق وحسّنه القرطبي[٥].

---

(١) الدرء لابن تيمية: ٣٨٢/٨ - ٣٨٣.

(٢) فتح الباري لابن حجر: ٢٩٤/٣، وانظر: شرح الزرقاني ١٢٠/٢.

(٣) انظر: فتح الباري لابن حجر: ٢٩٤/٣.

(٤) انظر: عين المعاني للغزنوي ١٢٥٦/٤، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٠/١٤.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٠/١٤.

وهذا القول مع بُعده عن المراد من حديث الفطرة وما سيق لأجله من قتل الذرية ونحو ذلك. فهو يتعارض مع استعاذة النبي ـــ ﷺ ـــ من الفقر والفاقة[1]، مـــع أنه مأمور بلزوم الفطرة واتباعها، مما يؤكد أن هذا ليس من معاني الفطرة ولا مدلولاتها.

(١) أخـــرجه ابـــن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، ذكر ما يستحب للمرء أن يتعوذ بالله -جل وعلا- من أن يظلم أحد أو يظلمه أحد ٣/٣٠٥.

الفصل الثالث

منزلة الفطرة والاستدلال بها

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: منزلة الفطرة في الإسلام والأسباب التي تؤثر فيها

المطلب الأول: منزلة الفطرة وأسباب سلامتها

المطلب الثاني: الأسباب التي تفسد الفطرة وتؤثر فيها

المطلب الثالث: شواهد على أن ما خالف الإسلام يخالف الفطرة

المبحث الثاني: دلالة الفطرة على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة

المطلب الأول: دلالة الفطرة على معرفة الله تعالى

المطلب الثاني: دلالة الفطرة على توحيد الألوهية

المطلب الثالث: دلالة الفطرة على إثبات صفات الكمال لله تعالى

المبحث الأول

منزلة الفطرة في الإسلام والأسباب التي تؤثر عليها

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:منزلة الفطرة وأسباب سلامتها

المطلب الثاني:الأسباب التي تفسد الفطرة وتؤثر فيها

المطلب الثالث:شواهد على أن ما خالف الإسلام يخالف الفطرة

المطلب الأول

منزلة الفطرة وأسباب سلامتها

لقد عظّم الإسلام أمر الفطرة وشأنها، حيث وصف القرآن الكريم الدين بها، وأمر باتباعها وحذر العباد من تغييرها مبيناً أن اتباعها هو سلوك للدين الذي ارتضاه وجعله مستقيماً قيّماً لجميع ما يحتاجه البشر في أمر دينهم ودنياهم قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

ومن تعظيم الإسلام للفطرة أنه جعلها الأساس السابق لأي دليل شرعي أو عقلي. فرسالة الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وشرائعهم مكملة للفطرة ومذكرة بها، وهذا ما بيّنه القرآن الكريم في مواضع عدة منها:

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[2] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[3]. وغيرها من الآيات.

---

(١) الروم: ٣٠.

(٢) الغاشية: ٢١.

(٣) ق: ٣٧.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في هذا المعنى : « الرسل إنما تأتي بتذكير الفطرة ما هو معلوم لها، وتقويته وإمداده، ونفي المغير للفطرة، فالرسل بعثوا بتقرير الفطرة وتكميلها، لا بتغيير الفطرة وتحويلها، والكمال يحصل بالفطرة المكمَلة بالشرعة المنزلة » [١]. والأدلة العقلية تعتمد على الفطرة الصحيحة أيضاً ـ كما سبق بيان ذلك ـ[٢].

ومن تعظيم الإسلام للفطرة أنَّ جميع أوامره ونواهيه تساير فطرة البشر وتناسبها، بل وتلبي كل الاحتياجات الفطرية ، فالإسلام « لا يترك وتراً من أوتار النفس لا يوقّع عليه، ثم لا يوقّع على وتر أكثر من طاقته ، أو يبخسه قدره فلا يُوقِع عليه ما يستحق من نغمات!! وبذلك يشمل الكيان الإنساني كله ، وفوق ذلك يُحدث التوازن في داخل النفس بشدها إلى أوتارها جميعاً فلا تميل من هنا ولا تميل من هناك، والتوقيع على أوتارها جميعاً فلا تنطق من جانب وتَظل في الجانب الآخر صماء » [٣].

❖ أسباب المحافظة على سلامة الفطرة:

قبل الحديث عن هذه الأسباب لابد من بيان أن هذه الأسباب الخارجة عن الفطرة لا يتوقف عليها وجود ما في الفطرة من الشعور بالخالق ومحبته وتعظيمه والذل له، وإن كان ذلك مذكراً ومحركاً أو منبهاً، ومزيلاً للمعارض المانع، لكن المقصود أنه لا يحتاج حصول ذلك في الفطرة إليها مطلقاً [٤]، لأن الكون الخارجي لا يُحدث في النفس شيئاً لا يكون موجوداً فيها من قبل، فالأصوات

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٦/٣٤٨.

(٢) انظر: ص ٣٠-٣٩ من هذا البحث.

(٣) دراسات في النفس لمحمد قطب: ٢٣٩.

(٤) انظر: الدرء لابن تيمية: ٨/٤٥٠، وشفاء العليل لابن القيم: ٥١٢.

ليست هي التي تنشئ القدرة على السمع، فهي موجودة سواء سمعها الإنسان أم لم يسمعها، وكذلك الأضواء ليست هي التي تنشئ القدرة على الإبصار، فهي موجودة سواء رآها الإنسان أم لم يرها، وكذلك بقية الأشياء[١].

والأسباب التي توقظ الفطرة وتنبهها كثيرة جداً، منها ما يلي:

١ ــ النظر في الكون وتأمل ما فيه من الآيات والمخلوقات:

إن التفكر والتأمل في آيات الله تعالى ومخلوقاته والآئه الدالة على عظمته وقدرته ووحدانيته وربوبيته من أنفع الأسباب المؤثرة في الفطرة. وقد استخدم الرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ هذا السبب لتحريك فطر الناس وإيقاظها من غفلتها، فدعو أقوامهم إلى تأمل أنفسهم وتأمل الكون من حولهم، ومن الآيات التي أشارت إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾.. [الآيات إلى قوله تعالى]: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[٢]. ففي هذه الآيات الجمع بين الدعوة والاستدلال بالآفاق والأنفس، وكل ذلك بتفصيل عجيب.

ومن الآيات الشاهدة على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[٣]، وقوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾[٤]. وقوله

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢٤٧/٤، ودراسات في النفس لمحمد قطب: ٢٢٣ - ٢٢٤.

(٢) النحل: ٢-١٧.

(٣) الذاريات: ٢١.

(٤) الانفطار: ٦-٨.

تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾[١]. ودلالة الأنفس التي ذكرت في الآيات السابقة من الدلالات التي استخدمها الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مع أقوامهم الكافرين لإيقاظ فطرهم، لأن أقرب شيء إلى الإنسان نفسه، ولو تأمل الكافر أحوال نفسه وعجائبها وتنقله في بطن أمه أطواراً وخروجه من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا وأكله وشربه ونموه وحركاته وسكناته لأوقعه ذلك في صراع مع الفطرة قد يقوده إلى الهداية.

ومن الدلالات التي استخدمها الرسل أيضاً دلالة الآفاق، وقد أشار إليها القرآن الكريم في عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾[٤]. وغيرها من الآيات الكثيرة.

---

(١) الطارق: ٥.

(٢) البقرة: ١٦٤.

(٣) آل عمران: ١٩٠.

(٤) النور: ٤٣.

وقد جمع الله ــ جل وعلا ــ بين دلالتي الأنفس والآفاق في قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١). ومما يؤكد أن التفكر والتأمل يؤثر في الفطرة ثناء الله ــ عز وجل ــ على المتفكرين في آياته وذمه للمعرضين عن ذلك.

قال تعالى في مدحهم والثناء عليهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾(٢).

وقال في ذم المعرضين عن ذلك: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ (٣). وقال ــ جل وعلا ــ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ (٤). وقال سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ مبيناً أن النظر في الكون والتأمل فيه يوقظ الفطرة ويؤثر فيها: « الآيات المخلوقة والمتلوة، فيها تبصرة، وفيها تذكرة، تبصرة من العمى وتذكرة من الغفلة فيبصر من لم يكن عرف

---

(١) فصلت: ٥٣.

(٢) آل عمران: ١٩١.

(٣) الأعراف: ١٤٦.

(٤) يوسف: ١٠٥ - ١٠٦.

(٥) الحج: ٤٦.

فيعرف، ويذكر من عرف ونسي » [١].

وقال أيضاً ـــ رحمه الله ـــ: « النظر لا ريب في صحته في الجملة، وأنه إذا كان في دليل أفضى إلى العلم بالمدلول، وإذا كان في آيات الله أفضى إلى الإيمان به الذي هو رأس العبادة » [٢].

وقـــد اعترف بعض العلماء الغربيين بالخالق ـــ سبحانه وتعالى ـــ وذلك نتيجة لتأملهم ودراستهم لقوانين الكون وأسرار الطبيعة التي أودعها الله في هذا الكـــون، ومـــن أقوالهم في ذلك: « إن هذا العالم الذي نعيش فيه قد بلغ من الاتقـــان والتعقيد درجة تجعل من المحال أن يكون قد نشأ بمحض المصادفة، إنه ملئ بالروائع والأمور التي تحتاج إلى مدبر والتي لا يمكن نسبتها إلى قدر أعمى، ولا شـــك أن العلـــوم قد ساعدتنا على زيادة فهم وتقدير ظواهر هذا الكون المعقدة، وهي بذلك تزيد معرفتنا بالله ومن إيماننا بوجوده » [٣].

وهكذا أثّر النظر في هذا الكون في إيقاظ فطرة هؤلاء العلماء حتى اعترفوا بالخالق ـــ سبحانه وتعالى ـــ.

٢ـــ إرسال الرسل وإنزال الكتب:

وهـــو من أهم الأسباب لسلامة الفطرة وإيقاظها وتكميلها، لأن الفطرة «مركوز فيها معرفة الله ومحبته والإخلاص لـــه و الإقرار بشرعة وإيثاره على غـــيره، فهـــي تعرف ذلك وتشعر به مجملاً ومفصلاً بعض التفصيل. فجاءت الرسل تذكرها بذلك وتنبهها عليه وتفصّله لها وتبيّنه وتعرفها الأسباب المعارضة

---

(١) الإيمان لابن تيمية تحقيق الألباني: ٢٢٣.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٢/٧٤.

(٣) عقيدة التوحيد/ ملكاوي: ١٥٠.

لموجب الفطرة المانعة من اقتفائها أثرها. وهكذا شأن الشرائع التي جاءت بها الرسل، فإنها أمر بمعروف ونهي عن منكر وإباحة طيّب وتحريم خبيث، وأمر بعدل ونهي عن ظلم. وهذا كله مركوز في الفطرة وكمال تفصيله وتبيينه موقوف على الرسل »[١].

ولأجل هذا أخبر الله تعالى في القرآن الكريم أن كتابه ورسوله مذكر وذكرى وتذكرة ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[٣].

وقد سبقت الإشارة إلى هذا السبب في الأدلة على وجود الفطرة[٤].

٣ ــ حلول المصائب والكوارث وما يتبعها من خوف وضر:

فهذا السبب يضطر الفطرة للبروز ويجليها من الجحود والضلال الذي قد يغطيها لفترة ثم يزول بمثل هذا السبب، فتلجأ إلى الله وتعود إليه. ومن الآيات الشاهدة لهذا قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[٥].

---

(١) شفاء العليل لابن القيم: ٥١٣.

(٢) الأعلى: ٩.

(٣) القمر: ١٧.

(٤) انظر: ص ٤٥-٤٨ من هذا البحث.

(٥) يونس: ٢٢.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ (١).

ولجوؤهم إلى الله تعالى في حال الشدة ما كان إلا لغلبة الفطرة وجلاءها في هذه الحالة التي هم فيها، وقد سبقت الإشارة إلى هذا السبب -أيضاً- في الأدلة على وجود الفطرة (٢).

٤ ــ التقوى:

وحقيقة التقوى هي امتثال أوامر الله ــ عز وجل ــ واجتناب نواهيه، وإذا امتثل الإنسان هذا الأمر فإنه يحفظ فطرته من كل ما يشوبها ويكدر صفائها ونقائها.

ولأهمية التقوى في حفظ الفطرة السليمة نقية أمر الله بها في مواطن كثيرة جداً في كتابه الكريم وكذا رسوله الكريم ــ عليه أفضل الصلاة والسلام ــ ومن ذلك: وصية الله بها الأولين والآخرين قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾(٣).

وقرن الله التقوى بكثير من قضايا التشريع الإسلامي فلا تكاد تخلو آية من الأمر بالتقوى إما في أولها أو أثنائها أو آخرها.

وكذلك الآيات التي تحدثت عن اليوم الآخر وأهواله لا تكاد تخلو من الأمر بالتقوى أيضاً، والتقوى سياج للفطرة من الرذائل والآثام ونزغات

---

(١) الزمر: ٨.

(٢) انظر: ص ٤٨-٥٠ من هذا البحث.

(٣) النساء: ١٣١.

الشيطان وأوهامه. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[١].

ولأهمية التقوى في سلامة الفطرة جعلها الله هي المقياس الحقيقي للإنسان عنده تعالى فقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مبيناً أهمية التقوى في حفظ الفطرة وسلامتها: « فلم عظمت التقوى؟ فيقال:إنها هي تحفظ الفطرة وتمنع فسادها، واحتاج العبد إلى رعايتها لأن المحبة الفطرية لا تحتاج إلى محرك، ولهذا كان أعظم ما دعت إليه الرسل الإخلاص والنهي عن الإشراك، لأن الإقرار الفطري حاصل لوجود مقتضيه، وإنما يحتاج إلى إخلاصه ودفع الشرك عنه »[٣].

---

(١) الأعراف: ٢٠١.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ٤٣٨/١٥.

المطلب الثاني

الأسباب التي تفسد الفطرة وتؤثر فيها

كما أن هناك أسباباً تسمو بالفطرة وتحافظ على سلامتها وصفائها، فهناك ـــ أيضاً ـــ أسباب تؤثر فيها وتمرضها بل قد تفسدها تماماً إذا لم يوفَّق صاحب تلك الفطرة إلى المحافظة عليها، ومن هذه الأسباب التي تفسد الفطرة ما يلي:

أولاً: الشيطان:

بدأت أول ممارسات الشيطان في الغواية والعداء لبني آدم حينما امتنع عن السجود لأبي البشر آدم ـــ عليه السلام ـــ قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[١].

وقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم تأثير الشيطان على فطرة بني آدم ودوره في انحرافهم عن الحق وذلك في آيات عدة منها:

قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[٢].

والمقصود بهذه الآيات أن الله تعالى ابتلى عباده بهذا العدو المبين، فأجلب عليهم بخيله ورجله أي دعاهم إلى معصية الله بأقواله وأفعاله وشاركهم في أموالهم وأولادهم، وهذا يشمل كل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم ومع هذا كله يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة ويعدهم عليها الأجر، لأنه أضلهم حتى ظنوا أنهم على الحق[٣].

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ

---

(١) الأعراف: ١١-١٨.

(٢) الاسراء: ٦٢-٦٤.

(٣) انظر: تفسير السعدي: ٣/١٢٠-١٢١.

(٤) النحل: ٦٣.

فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [١] ففي هذه الآيات بيّن الله تعالى أن الشيطان لم يقتصر على مجرد الإضلال بل تجاوز حتى زيّن لهم ما هم فيه من الضلال، فزادهم شراً إلى شرهم حيث منّاهم أن ينالوا ما يناله المهتدون، وهذا هو الغرور بعينه ـ عياذاً بالله منه ـ.

ثم أمرهم فغيروا خلق الله الظاهر والباطن، فالظاهر تغيير الخلقة الظاهرة بوشم ونحوه، والباطن غيروا ما فطر الله عليه عباده من التوحيد إلى الشرك [٢].

وقد أشار النبي ـ ﷺ ـ في عدة أحاديث إلى تسليط الشيطان على الإنسان منذ ولادته واستمراره معه مدى الحياة، ومن هذه الأحاديث:

قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **(ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان، غير مريم وابنها)**[٣].

قال القرطبي: « هذا الطعن من الشيطان هو ابتداء التسليط » [٤].

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: **(إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)**[٥] . ومن أصرح الأحاديث في إفساد الشيطان للفطرة قوله ـ عليه

---

(١) النساء: ١١٨-١٢٠.

(٢) انظر: تفسير السعدي: ٢/٤١١-٤١٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيا ٣/١٢٦٥، وفي كتاب التفسير، باب وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان ٤/١٦٥٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى -عليه السلام- ٤/١٨٣٨، حديث رقم ٢٣٦٦.

(٤) فتح الباري لابن حجر: ٦/٥٤١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظه، كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه ٢/ ٧١٧، وباب هل يدرأ المعتكف عن نفسه ٢/٧١٧، وفي كتاب الأحكام، باب الشهادة تكون=

الصلاة والسلام ـــ فيما يرويه عن ربه ـــ : (**إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**).

وقـــد سلك الشيطان مسالك عدة في إفساد الفطرة من أبرزها الوسوسة والتشكيك.

ومن صور التشكيك التي سلكها ما يلي[١]:

أ ـــ التشكيك في وجود الخالق ـــ سبحانه و تعالى ـــ:

قال عليه الصلاة والسلام: (**لن يدع الشيطان أن يأتي أحدكم فيقول: من خلـــق الســـماوات والأرض؟ فيقول: الله، فيقول فمن خلقك؟ فيقول: الله، فيقول من خلق الله؟ فإذا حس أحدكم بذلك فليقل آمنت بالله وبرسله**)[٢] .

وقـــد أوقـــع الشيطان بهذا الأسلوب كثيراً من الناس في الزندقة والإلحاد ـــ عياذاً بالله ـــ.

ب ـــ التشكيك في اختصاص الله تعالى بالعبادة، وحمل الناس على عبادة غيره سبحانه:

فعـــن عـــبد الله بـــن عباس ـــ رضي الله عنهما ـــ في تفسير قوله تعالى:

=عـــند الحـــاكم في ولايته القضاء أو قبل ذلك للخصم ٦/٢٦٢٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الســـلام ، باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خالياً بإمرأة وكانت زوجته أو محرماً له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به ٤/١٧١٢، حديث رقم ٢١٧٤، ٢١٧٥.

(١) انظر: عالم الجن/ عبيدات: ٥٢٩-٥٣٦.

(٢) أخرجه ابن حبان بلفظه في صحيحه، كتاب الإيمان، باب التكليف ، ذكر الأمر للمرء بالإقرار لله -جل وعلا- بالوحدانية ولصفيه -ﷺ- بالرسالة عند وسوسة الشيطان إياه ١/٣٦٢، والبخاري في صحيحه بنحوه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده ٣/١١٩٤، ومسلم في صحيحه، كـــتاب الإيمان،باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها ١/١١٩-١٢٠ الحديث رقم ١٣٤-١٣٥.

﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [١] قال هذه « أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتَنَسّخَ العلم عبدت » [٢]. قال ابن حجر ــ رحمه الله ــ: « فعبدوها بتدريج الشيطان لهم » [٣].

ومن تشكيكه في اختصاص الله بالعبادة، تزيينه للناس تلقي التحريم والتحليل من غير الله تعالى، كما قال سبحانه عن أهل الكتاب: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [٤] وكان هذا الاتخاذ بوحي الشيطان وتزيينه، ولهذا يخاطب الله تعالى يوم القيامة مَنْ وقع في هذا الضلال فيقول: ﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴾ [٥].

ومن أبشع ما وقعت فيه البشرية قديماً وحديثاً من عبادة الشيطان التي حذر الله تعالى منها في الآيات السابقة، عبادة طائفة من البشر لذات الشيطان عبادة خضوع وتقديس وتذلل، وهؤلاء هم الطائفة التي تسمى «عبدة الشيطان» [٦].

---

(١) نوح: ٢٣.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣٦٢٩/٨، وفتح الباري لابن حجر ٥٣٥/٨، والبخاري في صحيحه تعليقاً، كتاب التفسير، سورة نوح ١٨٧٣/٤.

(٣) فتح الباري لابن حجر: ٥٣٦/٨.

(٤) التوبة: ٣١.

(٥) يس: ٥٩-٦٢.

(٦) انظر: حول هذه الطائفة: عالم الجن/عبيدات: ٥٥٠-٥٦٥.

ج ــ التشكيك في العقائد الإيمانية:

فقد شكك الشيطان طوائف من الناس في العديد من مسائل العقيدة الإسلامية وأوقعهم في ضلالات وأباطيل كثيرة، كالتشكيك في الإيمان بالبعث واليوم الآخر وأهواله، والإيمان بالملائكة والجن، والتصديق بإرسال الرسل وعصمتهم، وغير ذلك من العقائد.

د ــ الوسوسة والتشكيك في كثير من شؤون الإنسان الدينية والدنيوية:

والأمثلة على هذه القضية كثيرة جداً نكتفي بالإشارة إلى بعض الأدلة الواردة في ذلك: فعن عثمان بن أبي العاص ــ رضي الله عنه ــ قال: قلت يا رسول الله: إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي وقراءتي يلبسها عليّ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ: (**ذاك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثاً قال : ففعلت ذلك فأذهبه الله عني**) [(١)].

وقال ــ عليه الصلاة والسلام ــ: (**إنَّ للوضوء شيطاناً يقال له الولهان، فاتقوا وسواس الماء**) [(٢)] وقال ــ ﷺ ــ : (**ما منكم من أحد إلا قد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة** قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: **وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير**)[(٣)]. ولاشك أن الشيطان هو

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظه، كتاب السلام، باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة ٤/ ١٧٢٨، حديث رقم ٢٢٠٣.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه بلفظه، كتاب الطهارة، باب ما جاء في كراهية الإسراف في الوضوء بالماء ١/٨٤، وأحمد في مسنده الحديث رقم ٢١٢٧٦، وابن ماجة في سننه، كتاب الطهارة ، باب ما جاء في القصد في الوضوء وكراهية التعدي فيه ١/١٤٦، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الوضوء، باب استحباب القصد في صب الماء وكراهية التعدي فيه والأمر باتقاء وسوسة الماء ١/ ٦٣، والحاكم في المستدرك، كتاب الطهارة ١/٢٦٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظه، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قريناً ٤/٢١٦٧-٢١٦٨، حديث رقم ٢٨١٤.

أعظم الأسباب إفساداً للفطرة، فكل شر وفسوق، وكل بداية لفكرة ظالمة أو عقيدة منحرفة، وكل بداية سيرٍ في طريق شهوة خاسرة وتزيينٍ للدنيا واعتبارها غاية عالية، كل هذا وغيره بسبب الشيطان وتزيينه وإضلاله.

ولأجل هذا كله أمر الله بأخذ الحذر والحيطة منه وأمر بالاستعاذة منه. ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[١] وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٢] .

وقال ـ عليه الصلاة و السلام ـ: (**إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه فذلك الوسواس الخناس**)[٣] ـ عياذاً بالله منه ـ.

ثانياً: البيئة الفاسدة:

وأعني بالبيئة هنا جميع ما يؤثر في الإنسان ويتسبب في تغيير سلوكه الذي وجد عليه سواءاً كان هذا المغير سبباً مادياً أو بشرياً أو معنوياً فهي تشمل المكان والإنسان والأفكار والعادات[٤].

والإنسان كائن اجتماعي بطبعه لا يمكن أن يعيش حياته منعزلاً أو يستطيع

---

(١) البقرة: ١٦٨.

(٢) فصلت: ٣٦.

(٣) أخرجه أبو يعلي في مسنده برقم ٤٣٠١، والبيهقي في شعب الإيمان، فصل في إدامة ذكر الله -عز وجل- ٤٠٣/١، قال ابن كثير في تفسيره عن هذا الحديث "غريب" ٥٥٨/٨، وقال الهيثمي في المجمع: فيه عدي بن أبي عمارة وهو ضعيف ١٤٩/٧.

(٤) انظر: دوافع إنكار الحق/ الملاحي: ٦٠.

أن يحقق حاجاته أو إشباع رغباته المادية والمعنوية بعيداً عن الآخرين[١]، وقد أشار الله إلى هذا الأمر فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا ﴾[٢] وأول المؤثرات البيئية على فطرة الإنسان وأهمها هي الأسرة ، قال ﷺ: (**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه...**).

وحذر الله تعالى من طاعة الوالدين فيما يفسد الفطرة فقال سبحانه: ﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[٣].

فالأسرة هي اللبنة الأولى التي يبدأ منها التأثير على الطفل كما نص على ذلك الحديث السابق فمنها يبدأ التعليم والتأديب والتأثير، ولأجل ذلك أولى الإسلام الأسرة أهمية كبرى، أشير هنا إلى بعض جوانب تلك الأهمية التي تؤكد أن الأسرة ذات تأثير كبير في حياة الأبناء وسلامة فطرهم. ومن تلك الجوانب:

١ ــ حض الإسلام على اختيار الزوجة ذات الدين والخلق لما لذلك من أهمية في حفظ أولادها وتنشئتهم النشأة الصالحة. قال ﷺ: (**تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك**)[٤].

---

(١) انظر: مجلة الأمن العام، الفطرة الإنسانية للجناة: ١٩٦.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) لقمان: ١٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظه، كتاب النكاح، باب الإكفار في الدين ١٩٥٨/٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع باب استحباب نكاح ذات الدين ١٠٨٦/٢، حديث رقم ١٤٦٦.

٢ ــ جعل القوامة للرجل لأن أمر الأسرة لا يستقيم إلا براعٍ يرعاها ويسيرها وفق ما أراد الله، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[١].

٣ ــ حثَّ كل فرد في الأسرة على أداء مسؤوليته، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[٢] وقال ﷺ: (**كلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته**... الحديث)[٣]. وفيه والرجل في أهل بيته مسؤول عن رعيته، والزوجة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها.

٤ ــ عظّم الإسلام أمر تربية الأولاد وحسن تأديبهم، ومن الأحاديث الدالة على ذلك: قوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ: (**لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع**)[٤]. وقوله ــ عليه الصلاة و السلام ــ: (**ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن**)[٥].

---

(١) النساء: ٣٤.

(٢) التحريم: ٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه بلفظه، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن ١/٣٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم ٣/١٤٥٩، حديث رقم ١٨٢٩.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده برقم ٢٠٩٣٨ و٢١٠٠٧، والترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في أدب الولد ٤/٣٣٧ وقال عنه حديث غريب، والطبراني في الكبير برقم ٢٠٣٢، والحاكم في المستدرك، كتاب التوبة والإنابة، الباب الأول ٤/٢٩٢.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده برقم ١٥٤٣٩ و١٦٧٥٦ و١٦٧٦٣، والترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في أدب الولد ٤/٣٣٨ وحكم عليه بالغرابة و الإرسال، والحاكم في المستدرك، كتاب التوبة والإنابة ٤/٢٩٢، والبيهقي في السنن الكبرى كتاب الحيض، باب وجوب تعلم ما تجزء به الصلاة من التكبير والقرآن ٢/١٨، وكتاب جماع أبواب صلاة الإمام قاعداً بقيام وقائماً بقعود وغير ذلك ٣/٨٤، والطبراني في الكبير ١٣٢٣٤.

وحث على تعليمهم الصلاة[١] وغيرها من العبادات والأخلاق الحسنة.

وهذا كله قليل من كثير من اهتمام الإسلام بالأسرة، وكل ذلك لما لها من بالغ التأثير على فطرة المولود وصلاحه أو انحرافه.

ومن المؤثرات البيئية على الفطرة أيضاً الأصحاب والأقران وسائر أفراد المجتمع المحيطين بالإنسان من غير الأسرة، فهؤلاء لهم تأثيرهم في إفساد الفطرة وانحرافها خصوصاً إذا كانوا فاسدين قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾[٢]، وأشهر ما يذكر شاهداً على ذلك قصة عم النبي ــ ﷺ ــ أبي طالب حينما حضرته الوفاة، فكان الرسول ــ ﷺ ــ يقول له: أ ي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، فقال له من حوله من قومه وأقرانه: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فما زالوا به حتى كان آخر ما قال لهم: أنا على ملة عبدالمطلب[٣].

وهذه بلقيس ملكة سبأ صدها قومها ومجتمعها الكافر الذي نشأت فيه عن الإسلام كما أخبر الله عنها بقوله: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾[٤] ولما لأصحاب السوء من المخاطر والأضرار

---

(١) ومن الأحاديث في الأمر بالصلاة قوله -عليه الصلاة والسلام-: "مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر... الحديث" رواه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة ١/١٣٣.

(٢) الكهف: ٢٨.

(٣) أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله ١/ ٤٥٧، وفي كتاب فضائل أصحاب النبي - ﷺ-، باب قصة أبي طالب ٣/١٤٠٩، وفي كتاب التفسير، باب ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ٤/١٧١٧، وباب إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ٤/١٧٨٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع ١/٥٤، حديث رقم ٢٤.

(٤) النمل: ٤٣.

حذر الله من مجالستهم فقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (١).

وقد حذر الرسول الكريم ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ من مصاحبتهم والاقتداء بهم في أحاديث عديدة، وذلك لما لهم من التأثير الفاسد في الدنيا والآخرة على فطرة الإنسان ودينه. ومن المؤثرات البيئية التي ذمها القرآن الكريم ـــ أيضاً ـــ ومقت أصحابها، الإصرار على تقليد الآباء والأجداد الضالين والجمود على عاداتهم ومعتقداتهم، وقد عاب الله ذلك على الكفار في مواطن كثيرة من القرآن الكريم ومنها:

قوله تعالى:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾(٢).

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (٣). وقوله : ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم ﴾ (٤). وقوله سبحانه: ﴿ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾(٥). وقوله تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾(٦).

وقد ذم الله هذه الصفة لأنها تعمي البصيرة وتمنع نور الحق أن يصل إلى

---

(١) الأنعام: ٦٨.

(٢) البقرة: ١٧٠.

(٣) الزخرف: ٢٣.

(٤) هود: ١٠٩.

(٥) الشعراء: ٧٤.

(٦) يونس: ٧٨.

الفطـــرة، فهؤلاء كفار قريش لّما أعمتهم هذه الصفة، جعلتهم يذمون ويعادون كل من خالف دين آبائهم ولو كان على الحق المبين، فهذا الرسول ــ ﷺ ــ لما دعاهم إلى الحق، وخرج على دين آبائهم وصفوه بابن أبي كبشة، وذلك نسبة إلى رجـــل من خزاعة يدعى أبو كبشة وهو من أشرافهم وكان أول من سن لخزاعة مخالفة العرب في عبادة الأوثان، وجعلهم يعبدون نجم الشعرى، فجعلت قريش مخالفة الرسول ــ ﷺ ــ لدينهم ودعوتهم إلى الحق والهدى كمخالفة أبي كبشة لهم[١].

ومـــن المؤثـــرات البيئية التي تفسد الفطرة، المؤسسات التربوية والتثقيفية الفاسدة فمراحل التعليم المختلفة التي يمر بها الإنسان خلال حياته ووسائل الثقافة المسموعة والمرئية والمقروءة، إذا فسدت فإنها تفسد الفطرة وتحرفها عن الحق.

يقـــول أحد المنصرين: « يجب أن نشجع إنشاء المدارس على الخط الغربي العـــلماني لأن كثيراً من المسلمين قد تزعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية وتعلموا اللغات الأجنبية » [٢].

إن المـــناهج التعليمـــية في المؤسسات ا لتربوية حينما تقوم على نظريات وفرضـــيات تعـــارض الديـــن أحياناً وتقف موازية له أحياناً وتهمله في غالب الأحـــيان، فإن النتيجة صدع في وجدان المتلقي ما يلبث أن يتسع ويتعمق حتى يـــتجاوز التشويش على فطرة المتلقي إلى إفسادها وطمس معالمها[٣]أما الوسائل الثقافية ــ والإعلامية خاصة ــ فقد أصبحت تملك في عصرنا وسائل شتّى تزين الـــباطل وتُقبّح الحق وتحرف الفطرة، « فدفعت الناس إلى اختيار الضلالة على

---

(١) انظر: تفسير البغوي ٤١٩/٧.

(٢) دوافع إنكار الحق/ الملاحي: ٦٦.

(٣) انظر: مجلة الإسلام اليوم/ ثقافة الطفل المسلم/ ١١٤-١١٧ العدد ١٢.

الهدى بما تقوم به من تحسين وتزيين أفقدهم القدرة على التمييز »[١].

ومن المؤثرات البيئية في افساد الفطرة ما يسمى « بالفساد السياسي » فحينما يصبح الأمر بيد أعداء الفطرة والإسلام فإن الفساد يشيع وينتشر ويخنق الحق والنور بحجبه الكثيفة، وخطورة هذا المؤثر أنه يتحكم في غيره من المؤثرات السابقة ويسيّرها في مساره لإطفاء الحق ونوره، وشواهد ذلك كثيرة، فقصص الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مع أقوامهم خير شاهد على ذلك: فهذا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ألقاه قومه في النار، وهذا فرعون سَخّر كل ما يملك لحرب موسى ودعوته، وقوم لوط أخرجوه، ونبينا محمد ـ ﷺ ـ هاجر من أحب البقاع إليه لما لقي من الأذى هو وأصحابه الكرام، وسير المصلحين في كل زمان ومكان وما يلاقونه من الاضطهاد والتغريب عن الأوطان، وما لقيه المسلمون في البلاد التي سيطرت عليها الشيوعية من الاضطهاد وما نتج عن ذلك من إنشاء أجيال من أبنائهم مقطوعي الصلة عن كل ما يوقظ فطرهم ويبعث نوازع الخير فيها.

كل هذه الشواهد تدل دلالة واضحة على خطورة الفساد السياسي على الفطرة، وما ينتج عنه من إفسادها وحجب الحق الذي يوقظها أن يصلها. وهذه المؤثرات البيئية السابقة مجتمعة تؤكد على خطورة البيئة الفاسدة على الفطرة السليمة، فهذا نوح ـ عليه السلام ـ لّما رأى فساد قومه وبيئتهم وانقطع أمله في إصلاح أوضاعهم دعا عليهم دعاءه المشهور: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾[٢].

---

(١) دوافع إنكار الحق/ الملاحي: ٥٧.

(٢) نوح: ٢٦-٢٧.

ثالثاً: اتباع الهوى:

والمراد بالهـــوى هنا ميلان النفس إلى ما تستلذه من شهوة تلائم طبعها أو اتباعها لشبهة توافق عقلها[١].

والهـــوى مـــن أخطر الأسباب التي تفسد الفطرة وتضلها، فهو « الدافع القوي لكل طغيان ولكل تجاوز ، وكل معصية وهو أساس البلوى وينبوع الشر وقـــل أن يؤتـــى الإنسان إلا من قبل الهوى » [٢]. ولهذا جعل الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ مخالفة الهوى شرطاً لدخول الجنة فقال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾[٣] وجعـــل الرسول ـــ ﷺ ـــ مخالفته أفضل الجهاد فقال: (**أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفســـه وهواه**) [٤].

وقد بيّن الله في كتابه الكريم أن الهوى كان سبباً من أسباب تكذيب الأمم لرسلهم وذلك في أكثر من آية، ومنها قوله تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾[٥]. وقـــال سبحانه: ﴿ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾[٦].

ونصّ سبحانه في آية أخرى على أن عدم الاستجابة للحق ناتجة عن اتباع

---

(١) انظر: التعريفات للجرجاني ٣٢٠، ومقدمة في أسباب الاختلاف للعبدة: ٤٦.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب: ٣٨١٩/٦.

(٣) النازعات: ٤٠-٤١.

(٤) أخـــرجه المـــروزي في تعظيم قدر الصلاة بنحوه ٦٠١/٢-٦٠٢، وانظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني: رقم ١٠٩٩، ٢٤٧/١ ، والسلسلة الصحيحة له رقم ١٤٩١ و١٤٩٦.

(٥) البقرة: ٨٧.

(٦) المائدة: ٧٠.

الهوى فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[١].

واتباع الهوى سبب كل ضلال وفساد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[٢]. وقال سبحانه: ﴿ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[٣]. وقال ـ جل وعلا ـ : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[٥].

ومما يزيد في خطورة إتباع الهوى أن صاحبه لا يكتفي بضلاله وحده، بل يسعى لإضلال غيره قال تعالى: ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾[٦]. وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[٧].

والآيات في التحذير من اتباع الهوى وبيان خطره وذم أهله كثيرة جداً.

وأما الأحاديث فقد حذر الرسول ـ ﷺ ـ أمته من الهوى وأهله في أحاديث كثيرة منها: قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (**ثلاث مهلكات ـ وذكر منها ـ هوى متبع**)[٨]. وكان يتعوذ ـ عليه الصلاة والسلام ـ

---

(١) القصص: ٥٠.

(٢) ص: ٢٦.

(٣) الأنعام: ٥٦.

(٤) المؤمنون: ٧١.

(٥) الأنعام: ١١٩.

(٦) طه: ١٦.

(٧) المائدة: ٧٧.

(٨) أخرجه البزار في مسنده برقم ٣٣٦٦، والطبراني في الأوسط رقم ٥٤٥٢، ٥٧٥٤، والشهاب في مسنده رقم ٣٢٦ والبيهقي في شعب الإيمان ٤١٧/١ و٤٥٢/٥، وحسنه الألباني بمجموع طرقه انظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته: رقم ٣٠٤٥، ٥٨٤/١، والسلسلة الصحيحة: رقم ١٨٠٢، ٤١٢/٤.

مـــن: (**منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء**) [١]. وقال ـــ ﷺ ـــ: (**إن مما أخشى عليكم بعدي بطونكم وفروجكم ومضلات الأهواء**)[٢]. إلى غير ذلك من الأحاديث.

وحـــذر الســـلف الصالح من اتباع الأهواء وردّوا على أهلها حتى أفردوا لذلـــك المصنفات التي جمعوا فيها الآثار الواردة في ذمه وبيان مظاهره وصفات أهله وطرق العلاج لمن أراد الخلاص منه[٣] ـــ عياذاً بالله منه ـــ.

وبهذا يتبين أن اتباع الهوى سواءاً لشهوة أو شبهة مفسد للفطرة وموقع في الضلال وأنه من أعظم أسباب إفسادها.

رابعاً: الكبر:

وقد عرفه الرسول ـــ ﷺ ـــ بأنه: (**بطر الحق وغمط الناس**)[٤]. فالكبر

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ٧٧/٦، والترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب دعاء أم سلمة ٥٧٥/٥، وابـــن أبي عاصم في السنة ١٢/١، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ٣٩٨/١، وابن حـــبان في صـــحيحه، كتاب الرقائق، باب الأذكار، ذكر ما يستحب للمرء أن يسأل الله -جل وعـــلا- المجانـــبة عـــن الأخلاق المنكرة والأهواء الردية ٢٤٠/٣، والطبراني في الكبير رقم ٣٦، والحـــاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ٧١٤/١، والهيثمي في موارد الظمآن ٦٠١/١، والبيهقي في شعب الإيمان ٣٦٤/٦.

(٢) أخـــرجه أحمد في مسنده برقم ١٩٧٨٧ و١٩٧٨٨ و١٩٨٠٣، والبزار في مسنده برقم ٣٨٤٤، والطـــبراني في الصـــغير ٥١١، والبيهقي في كتاب الزهد الكبير ١٦٤/٢، وقال الهيثمي في مجمع الـــزوائد بعد ذكره لمن أخرجه رجاله رجال الصحيح ١٨٨/١ و٣٠٦/٧، وصححه الألباني في تحقيقه للسنة لابن أبي عاصم ١٢/١.

(٣) المصنفات في هذا الباب كثيرة فمنها ما أفرد بالرد على بدعة معينة أو طائفة معينة أو كان عاماً في أهـــل الأهواء، وكتب التوحيد والسنة كلها مليئة بالآثار الذامة للهوى وأهله، ومما أفرد في الهوى مطلقاً: ذم الهوى لابن الجوزي، وذم الهوى واتباعه لابن القيم وقد حققه علي حسن عبدالحميد، وغيرها من الكتب.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه بلفظه،كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه،٩٣/١، حديث رقم ٩١.